# الآداب التربوية للفرد والمجتمع
# في سورة الحجرات

بقلم

د. إسماعيل عبد العزيز (أبو شطره)

أستاذ التفسير المساعد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات

فرع جامعة الأزهر الشريف بالإسكندرية

## على سبيل التقديم

الحمد لله رب العالمين، أحمده وأشكره شكرًا جزيلًا طاهرًا عاطرًا طيبًا كثيرًا مباركًا فيه بلا حصر ولا حد ولا عد ولا منتهى كما ينبغى لجلال وجهه وعظيم سلطانه.

سبحانك ربي لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، عز جارك، وجل ثناؤك، ولا إله غيرك، ولا معبود سواك.

وأشهد أن لا إله إلا الله، نزل القرآن هدىً للناس، وشفاءً لما في الصدور، وتبيانًا لكل شيء، ورحمة وبشرى للمؤمنين.

وأشهد أن سيدنا محمدًا رسول الله، أنزل عليه القرآن معجزة المعجزات، وأكبر الرسالات، وأضخم الأمانات.

فقد نزل لتصحيح الأوضاع والذات، وتربية للأفراد والأمم والجماعات، تقويمًا للأخلاق، وتهذيبًا للنفوس، وتأديبًا للسلوك، وإزاحة للعلل، وتفنيدًا للشبهات، وتربية للعقول والنفوس والضمائر والمشاعر والفوائد والأحاسيس من الإلحاد والشهوات، وفق منهج رباني جامع، ودستور إلهي بارع، وقانون سماوي ماتع، فقد ضمن الله الهداية والسعادة لمن له طبَّق واتبع.

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣].

ألا فما أحوج البشرية جمعاء لتطبيق نظامه، وتنفيذ أحكامه، مثلما طبَّق ونفذ لهذا النظام سلفنا الصالح، فنالوا ما نالوا من عزة وتقدم ورقي ورفعة ونصر؛ لإصلاحهم للأخلاق، وتناولهم للتربية وفق منهج دستور القرآن في الإصلاح والتهذيب.

والخلف إن بدل النظام، وغير الأحكام، سيناله حظ من الشقاء عظيم، وخطر من الضلال جسيم ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤-١٢٧].

وإن اجتهد وعمل صالحًا فجزاؤه ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

### أهمية الكتابة في هذا الموضوع:

إن الظروف العصيبة والشديدة والحرجة التي تمر بها الأمة الإسلامية والعربية لكفيلة أن تثمر ثورة على النفس نحن جميعا في أمس الحاجة إليها، لإعادة هيكلتها وفق منظومة السماء، تعاد خلالها التربية للنبع الأصيل العذب الثر، إلى تربية القرآن والعودة إلى محاضنه الأولى، فعندها يكون الفوز الأعظم، ويتحقق الأمل الأكبر والنصر الأضخم!

وإنني من حيث أبغي النفع، وأرجو الخير، وأنشد الإصلاح ما استطعت إلى ذلك سبيلا، فقد آثرت الكتابة في هذا الموضوع بعد استخارة المولى عَزَّوَجَلَّ، حيث شدة الحاجة إليه؛ لأنني أحسب - والله حسيبي - أننا في مسيس الحاجة إليه وذالك لإعادة صِياغة الأخلاق وهيكلتها، و تجديد عوامل التربية في كل الميادين، وإعادتها إلى منابعها وفق منهج رباني يضمن سلامة الفرد والمجتمع والشعوب جميعا من أى انحراف أو خطر أو زيغ أو هوى أو ضلال.

ولا غرو من أن التربية القرآنية هي التي أفرزت جيلًا ربانيًا قويًا، استطاع في زمن قياسى أن يتقدم صفوف الأمم، وأن يثبت نفسه في عالم الحضارات كأول بلا منازع، فانحنت له هامة التاريخ، وكتبته بأحرف من نور على صفحات المجد والخلود.

والسر الأعظم يكمن في هيمنة الروح القرآنى والروح المحمدى ﷺ على جميع أعمالهم وأنفاسهم، فبذا سادوا وقادوا وعزوا.. وإنه لا خلاص لنا مما يعترينا من مشكلات إلا أن نسلك نفس الطريق إن كنا نبغى لمعضلاتنا الحل و لأنفسنا الراحة والطمأنينة والنجاة!!!

وجدير بالذكر أن سورة ﴿ الحجرات ﴾ من السور القرآنية التي تتضمن كثيرا من الآداب الفذة التي يجب أن يتربى عليها الجميع.

فى البيوت والمحاضن والكتاتيب والمساجد والمدارس والجامعات.. وأن يطبقوا تعاليمها مع باقى سور القرآن الكريم كى ينعم الجميع بحياة كريمة طيبة هانئة.

ومن ثم فقد سميت البحث بمنحة بارئ الأرض والسماوات: "الآداب التربوية للفرد والمجتمع في سورة ﴿ الحجرات ﴾.

**وقد دارت خطة البحث في هذا الموضوع على الآتي:**

**أولًا** - اعتمدت على المنهج التاريخى والنقدى.

**ثانيًا** - اعتمدت على أمهات الكتب العلمية في التفسير والحديث واللغة وغيرها.

**ثالثًا** - رقمت الآيات القرآنية من المصحف الشريف، وخرجت الأحاديث النبوية من كتب السنة، وحكمت على الأحاديث اعتمادا على أئمته.

**رابعًا** - عنونت لكل أدب تربوى بما يناسبه في هذا السبيل.

**خامسًا** - ذكرت أسباب النزول، وعرجت بعد ذلك على آراء أهل التفسير تحت عنوان فقه المعانى.

**سادسًا** - رجحت ما استرحت لترجيحه معتمدا على الدليل.

**سابعًا** - ختمت كل فصل بذكر ما استنبطه واستنتجته من الآداب التربوية للفرد والمجتمع من خلال الآيات.

**ثامنًا** - ذكرت مراجع البحث في هامش الصفحات مشفوعة بذكر المحقق ودار الطبع وسنة الطباعة إن وجدت واكتفيت بهذا القدر.

**وقد تضمنت خطة البحث ثمانية فصول مبينة كما يأتي:**

❁ **على سبيل التقديم** - أشرت فيه إلى أهمية الكتابة في هذا الموضوع.

❁ **على سبيل التمهيد** - وبينت فيه معنى كلمة الآداب والتربية والأخلاق في اللغة الاصطلاح، وأثبت مكان نزول سورة ﴿ الحجرات ﴾، وعدد آيها، وكلماتها وحروفها، ووجه تسميتها باسمها المذكور، وترتيب نزولها، وفى أى عام نزلت، وترتيبها في المصحف، وأغراضها، وصلتها بما قبلها وما بعدها، وما تعالجه السورة المباركة.

❁ **الفصل الأول** - تربية المؤمنين على كيفية التعامل مع الله جَلَّجَلَالُهُ ورسوله الكريم ﷺ.

❁ **الفصل الثاني** - تربية المؤمنين على كيفية التعامل مع نبينا الكريم ﷺ.

❁ **الفصل الثالث** - تربية المؤمنين على التثبت في قبول الأخبار.

❁ **الفصل الرابع** - تربية المؤمنين على إصلاح ذات بينهم.

❁ **الفصل الخامس** - تربية المؤمنين على اجتناب السخرية بالآخرين.

❁ **الفصل السادس** - تربية المؤمنين على اجتناب سوء الظن بأحد والتجسس عليه واغتيابه.

❁ **الفصل السابع** - تربية المؤمنين على خلق التواصل.

❁ **الفصل الثامن** - تربية المسلمين على التخلق بصدق الإيمان.

**وختامًا**.. والله نسأل أن يرزقنا الإخلاص والصدق والقبول، ومحبة الرسول الكريم ﷺ في كل ما نفعل وما نذر وما نقول إنه خير مأمول ونعم مسئول.

اللَّهُمَّ صل وسلم وبارك على معلم الناس الخير سيدنا محمد وجميع آله وأصحابه بلا حصر ولا حد ولا عد ولا منتهى إلى يوم الدين صلاة وتسليمًا نجاور بهما في الروضة المشرفة وفى الفردوس الأعلى.

**وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين**

كتبه

**راجي عفو ربه والفقير إلى مولاه**

إسماعيل أبو شطره

## على سبيل التمهيد

**معنى كلمة آداب في اللغة:**

جاء في أساس البلاغة، أدب هو من آدَبِ النَّاسِ، وقد أدب بضم الدال وأرب.. وأدبهم على الأمر: جمعهم عليه يأدبهم[١].

والآداب جمع ومفردها أدب ومعنى الأَدَبُ مُحَرَّكَةً: الذي يَتَأَدَّبُ به الأَديبُ من الناس سُمّيَ به لأَنه يَأْدِبُ الناسَ إلى المَحَامِدِ وَيَنْهَاهُم عن المَقَابِحِ وأَصلُ الأَدَبِ: الدُّعَاءُ

وقال شيخنا ناقلًا عن تقريرات شيوخه: «الأَدَبُ مَلَكَةٌ تَعْصِمُ مَنْ قامت به عمَّا يَشِينُه وفي المصباح: هو تَعَلُّم رِيَاضَةِ النَّفْسِ ومَحَاسِن الأَخْلاَقِ».

وقال أَبو زيد الأَنصاريّ: «الأَدبُ يَقَع على كل رِيَاضَةِ مَحْمُودَةٍ يَتَخَرَّجُ بها الإِنسانُ في فَضِيلَةٍ من الفَضَائِلِ ومثله في التهذيب وفي التوشيح: هو استعمالُ ما يُحْمَدُ قَوْلًا وفِعْلًا أَو الأَخْذُ أَو الوُقُوفُ مع المُسْتَحْسَنَات أَو تَعْظِيمُ مَنْ فوقَك والرِّفْق بمَنْ دُونَكَ».

ونَقَل الخَفَاجِيُّ في العِنَايَة عن الجَوَالِيقي في (شرح أَدَبِ الكَاتِبِ): «الأَدَبُ في اللغة: حُسْنُ الأَخلاق وفِعْلُ المَكَارِم وإِطلاقُه على عُلُومِ العَرَبِيَّة مُوَلَّدٌ حَدَثَ في الإِسلام».

وقال ابنُ السِّيدِ البَطَلْيَوْسِيُّ: «الأَدَبُ أَدَبُ النَّفْسِ والدَّرْسِ، والأَدَبُ: الظَرْفُ بالْفَتْح وحسْنُ التَّنَاوُلِ، وهذا القَوْلُ شَامِلٌ لغَالبِ الأَقْوَالِ المذكورة»[٢].

وفي (المعجم الوجيز): أدب القوم بفتح الجميع أدبا بإسكان الدال، دعاهم إلى مأدبته.

---

(١) «الزمخشري»: ص ١٥، ط. دار صادر بيروت - لبنان - الأولى ١٤١٢ هـ ١٩٩٢ م.

(٢) «تاج العروس»: مادة: (أدب) لمرتضى الزبيدي.

وفلانًا: راضه على محاسن الأخلاق والعادات، تأدب بأدب القرآن أو أدب الرسول الكريم ﷺ احتذاه.

**وهو في الاصطلاح:** رياضة النفس بالتعلم والتثقيف والتهذيب والتخلق على ما ينبغى، وجملة ما ينبغى لذى الصناعة أو الفن أن يتمسك به، كأدب القاضى وأدب الكاتب. والجميل من النظم والنثر جمع آداب.

وتطلق الآداب حديثًا على الأدب بالمعنى الخاص، والتاريخ والجغرافيًا، وعلوم اللسان والفلسفة.

**والآداب العامة:** العرف المقرر المرضى[١].

وأما معنى التربية فهى مأخوذة من: رَبَّ ولَدَه والصَّبِيَّ يَرُبُّهُ رَبًّا ورَبَّبَه تَرْبِيبًا وتَرِبَّةً عن اللحياني بمعنى رَبَّاه وفى الحديث لكَ نِعْمةٌ تَرُبُّها أَي تَحْفَظُها وتُراعِيها وتُرَبِّيها كما يُرَبِّي الرَّجُلُ ولدَه وفى حديث ابن ذي يزن أُسْدٌ تُرَبِّبُ في الغَيْضاتِ أَشْبالا أَي تُرَبِّي وهو أَبْلَغ منه ومن تَرُبُّ بالتكرير الذي فيه وتَرَبَّبَه وارْتَبَّه ورَبَّاه تَرْبِيَةً على تَحْوِيلِ التَّضْعِيفِ وتَرَبَّاه على تحويل التضعيف أَيضًا أَحسَنَ القِيامَ عليه وَوَلِيَه حتى يُفارِقَ الطُّفُولِيَّةَ كان ابْنَه أَو لم يكن، وأَنشد اللحياني:

تُـرَبِّـبُـهُ مـن آلِ دُودانَ شَلَّةٌ تَـرِبَّـةَ أُمٍّ لا تُضيعُ سِخَالَها[٢]

**وجاء عنده أيضًا:** والتَّرْشِيحُ أَيضًا التربية والتهيئة للشيء ورُشِّحَ للأَمر رُبِّيَ له وأُهِّل ويقال: فلان يُرَشَّح للخلافة إِذا جُعِل وليّ العهد وفلان يُرَشَّحُ للوزارة أَي يُرَبَّى ويُؤَهَّل لها ورَشَّحَ الغيثُ النباتَ رَبَّاه قال كثير يُرَشِّحُ نَبْتًا ناعِمًا ويُزينُه نَدًى[٣].

(١) «المعجم الوجيز»: ص ٩ بتصرف، ط. مجمع اللغة العربية ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

(٢) «لسان العرب»: مادة: (ربب) لابن منظور.

(٣) «لسان العرب»: مادة: (رشح).

وأيضًا: التَّغْذية التَّرْبية.

قال ابن سيده: «غَذَيتُ الصبِيَّ لغة في غَذَوْتُه إذا غَذَّيْتَه»[١].

وفي القاموس: رب الشيء يربه ربا: من باب نصر، رباه ورعاه ليبلغه كماله. وربا الشيء يربو ربا (بالقصر) ورباء بالمد وربوا: زاد ونما[٢].

وعلى ضوء المعاني اللغوية لكلمة التربية يتبين لنا أن معناها (ولاية الولد في نشأته، وتعهده بما يغذيه وينميه ويثقفه ويؤدبه)، فهو راب والولد مربوب.

فمعنى التربية النمو والزيادة والعلو والارتفاع، وهى غالبا ما تتأرجح بين معانى حسية ومعنوية.

وعلى ضوء البيان اللغوى لكلمة التربية فإننا نستطيع تعريفها اصطلاحًا فنقول: (التربية) هي تنمية القوى الجسدية، والمهارات العقلية والمكتسبات الفكرية، والملكات النفسية، والمواهب الروحية، والمدارك السلوكية والخلقية لدى الأفراد والجماعات، بغية الإصلاح والتعويد على مكارم الأخلاق.

ولعلني فيما ذهبت إليه من تعريف للتربية لا أبتعد عن نظرة الأستاذ العلامة/ محمد قطب من حيث إنها معالجة الكائن البشرى معالجة شاملة جسمه وعقله وروحه، حياته المادية والمعنوية وكل نشاطه على الأرض[٣].

وعن رؤية الدكتور/ أحمد فؤاد الأهواني حيث يقول: «وقد جمعت التربية الإسلامية منذ أول ظهور الإسلام بين تأديب النفس، وتقويم الجسم، فهى تعنى بالتربية الدينية

---

(١) «لسان العرب»: مادة: (غذا).

(٢) «القاموس القويم للقرآن الكريم»: (١/ ٢٥١، ٢٥٣) الأستاذ. إبراهيم أحمد عبد الفتاح، ط. مجمع البحوث الإسلامية ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٣م.

(٣) «منهج التربية الإسلامية»: ص ١٨ بتصرف يسير، ط. دار الشروق الرابعة عشر ١٤١٤ هـ ١٩٩٣م.

والخلقية والعلمية والجسدية، دون تضحية بأى نوع منها على حساب الآخر، وتبدأ التربية في البيت عن طريق المحاكاة والتلقين[١].

فالتربية إذن ليست كما يتصور البعض بأنها حمل المتعلمين على حفظ فروع العلم فقط، بل هي كما يراها ابن خلدون: إثبات ملكة العلم في نفوس المتعلمين.

وهو ما ذهب إليه د. محمد الجوادي حيث يقول: «الحديث عن تربية الأخلاق والعادات من خلال مقررات بعينها نوع من التجريب الفاشل».

ويذهب كما يرى د. الأهوانى إلى أن التعويد هو الأهم في مسألة التربية فيقول: «التعويد كفيل بتربية الأخلاق الحميدة والفضائل الرفيعة»[٢].

**والتعويد الذى يقصده الدكتور الجوادى هو ما عنى به قول الشاعر:**

وينشأ ناشىء الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

ويراها جولد سيمون أداة إلى النمو العقلى وازدهار النفس بالأخلاق الفاضلة. وهى أيضًا ثقافة كل جيل لما يتلوه من أجيال لتزويد الناشئين بما يقومهم ويرفعهم إلى المستوى الذى وصل إليه آباؤهم[٣].

---

(١) «التربية في الإسلام»: ص ٩، ط. دار المعارف، ويراجع: «منهج التربية الإسلامية»: ص ٣٥٨ وما بعدها للأستاذ. محمد قطب، ط. دار الشروق الرابعة عشر ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣م.

(٢) «آراء حرة في التربية والتعليم»: ص ١١٥، د/ محمد الجوادى، مكتبة الأسرة.

(٣) «فن التربية»: ص ٩ بتصرف، د/ عمرو حسن، مكتبة جزيرة الورد بالمنصورة، «تربية الأولاد في الإسلام من الكتاب والسنة»: ص١٤، د/ محمود محمد عمارة، نشر مكتبة الإيمان بالمنصورة مصر، «تربية الأولاد في الإسلام»: (١/ ١٦٧) الأستاذ. عبد الله ناصح علوان: ط. دار السلام الثالثة ١٤٠١هـ -١٩٨١م، «موسوعة العناية بالطفل»: ص ٣ وما بعدها: «أعايدة الرواجبة»: ط. دار أسامة للنشر والتوزيع الأردن عمان - الأولى ٢٠٠ م.

وجاء لها تعريف آخر بأنها قدرة طبيعية على اكتساب أنماط معينة من السلوك[١].

ونحن حينما نعنى بعنصرى الآداب والتربية، فإننا نعنى بالتربية الخلقية على منهج القرآن والسنة، ذلكم المنهج الربانى الفريد، الذى أسس للأخلاق دستورا خالدا على مدى الأيام.

وجعل لها ضوابط شرعية، وقواعد إيمانية، وقوانين ربانية، ومعايير نورانية تهتدى بها البشرية في دياجيها، وترتقى بمقتضاها في علومها ومعارفها وأمانيها، وتتنسم من خلالها راية المجد من ذروة معاليها، وتمتطى سماء الشرف بكل أبعادها ومراسيها!

وحديث الأيام «**أدبني ربي فأحسن تأديبي**»[٢] لشاهد حق، وناطق صدق، وحاكم عدل، على حسن التربية، وجليل الأخلاق، وبديع الأفعال، وحميد الصفات، التي أثرت عن المصطفى الكريم ﷺ؛ والذى تمثل القرآن في أخلاقه الشريفة وصفاته العليا وأفعاله الحنيفة لدرجة أنه كان قرآنا يمشي على الأرض.

فلقد سأل هشام بن حكيم أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأرضاها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن»[٣].

وليس بعد وسام الله وسام، وليس هنا لك بعده تقدير حيث أعطى الله مصطفاه ﷺ أعظم شهادة، ومنحه أرفع درجة، وقلده أغلى وسام فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾. [القلم: ٤]

---

(١) «المعجم الوسيط»: إبراهيم مصطفى أحمد الزيات، حامد عبد القادر محمد النجار، ط. مجمع اللغة العربية.

(٢) الحديث ضعيف: قال الألباني في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (١ / ١٧٢): ضعيف، وقال ابن تيمية في «مجموعة الرسائل الكبرى» (٢ / ٣٣٦): معناه صحيح، و لكن لا يعرف له إسناد ثابت، و أيده السخاوي و السيوطي، فراجع: «كشف الخفاء» (١ / ٧٠).

(٣) الحديث صحيح: أخرجه مسلم: (٧٦٤).

ولكأن المصطفى الكريم ﷺ يغرد في سمع الزمان في كل لحظة وحين، فترسم كلماته الطاهرات الودود أبعادا من أهداف رسالته، ويكتسى الكونَ ثوبٌ من نفحات هديه، ويتطيب المكان بشذى عطره، فيطرب الزمان، ويتجدد الإيمان، فينتشر الأمن ويعم الأمان، ويهدى الله الحيران، وذلك بنشيد المصطفى من عذب الترياق «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»[١].

ومن إتمام الفائدة أن نذكر تعريفا مختصرا للأخلاق والتى تعد بمثابة الأثر المهم، والفاعل الأقوى في مسألة التربية.

***معنى الأخلاق لغة:***

الأخلاق جمع خلق، والخلق اسم لسجية الإنسان وطبيعته التي خلق عليها.

**قال ابن منظور:** «الخُلُقُ بضم اللام وسكونها هو الدين والطبع والسجية، وحقيقته أن صورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها»[٢].

**ويقول صاحب كتاب (القاموس والخلق):** «بالضم وبضَمَّتَيْنِ: السَّجِيَّةُ والطَّبْعُ والمُروءةُ والدينُ»[٣].

**وقال الراغب:** «والخلق والخلق في الأصل واحد، كالشرب والشرب، والصرم والصرم، لكن خص الخلق بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخص بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة»[٤].

---

(١) الحديث صحيح: أخرجه البخارى في «الأدب المفرد»: (١/ ٢٧١)، والحاكم في «المستدرك»: (٢/ ٦٣١)، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبى، وقال الألباني: إسناده حسن، وله شاهد أخرجَه ابن وهب في «الجامع»، فالحديث صحيح.

(٢) «لسان العرب»: (١٠/ ٨٦) لابن منظور، مادة: (خلق).

(٣) «القاموس المحيط» للفيروز آبادي، مادة: (خلق).

(٤) «مفردات ألفاظ القرآن الكريم» للراغب الأصفهاني: ص ٢٩٧.

**معنى الأخلاق اصطلاحًا:**

عرف الجرجاني الخلق بأنه عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كان الصادر عنها الأفعال الحسنة كانت الهيئة خلقا حسنا، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة سمّيت الهيئة التي هي مصدر ذلك خلقًا سيئًا[١].

وعرفه ابن مسكويه في (تهذيب الأخلاق) بقوله: «الخلق: حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية، وهذه الحال تنقسم إلى قسمين: منها ما يكون طبيعيًا من أصل المزاج، كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو غضب ويهيج من أقل سبب، وكالإنسان الذي يجبن من أيسر شيء، أو كالذي يفزع من أدنى صوت يطرق سمعه، أو يرتاع من خبر يسمعه، وكالذي يضحك ضحكا مفرطا من أدنى شيء يعجبه، وكالذي يغتم ويحزن من أيسر شيء يناله. ومنها ما يكون مستفادا بالعادة والتدرّب، وربما كان مبدؤه بالروية والفكر، ثم يستمر أولًا فأولًا حتى يصير ملكة وخلقا»[٢].

ومما سبق يتبين لنا أن القيم الخلقية هي موضوع علم التربية، كما هو واضح، وهى في نفس الوقت موضوع كل فرد وكل جانب من جوانب الحياة، وهى كذلك موضوع العلوم الإنسانية والطبيعية على السواء، إذ تقف وراء كل عمل إنسانى، وكل تنظيم اجتماعى أو اقتصادى أو سياسي، فموضوعها هو علاقة الإنسان بالكون الذى يعيش فيه، ونظرته إلى نفسه وإلى الآخرين وإلى سلوكه وأنواع ضبطه وإلى مكانه من المجتمع بأنظمته وعلاقاته، بماضيه وحاضره ومستقبله.

---

(١) «التعريفات» للجرجاني: ص ١٠١.

(٢) «تهذيب الأخلاق» لابن مسكويه: ص٤١.

ولذا انشغلت الفلسفة بتحديد مصدرها وبماهيتها، فهل هي في عالم بعيد عن عالم الإنسان أم هو عالم المثل أو عالم ما وراء الطبيعة، أم أنه ثمرة خبرة الإنسان في تفاعله بهذا العالم الذى يعيش فيه بما فيه من أشياء وأفراد وأنظمة؟ وهل هي مطلقة ثابتة أم متغيرة؟

وانشغل الناس بأمور دينهم باعتباره مصدر كل القيم الروحية والخلقية، وهو أساس في توجيه سلوك الناس، وفى التمييز بين الخير والشر، وبين الخطأ والصواب، وهو الذى يحدد موقف الإنسان من ربه، ومن الكون الذى يعيش فيه.

والقائمون على قواعد تفسير الدين، وما يتضمنه من قيم سامية يختلفون في مواقف الإنسان منها؛ فمنهم من يرى ضرورة التزامه بالنص دون إعمال للعقل، ومنهم من يرى تأكيد سلطان العقل، حيث إن الله حينما أنزل على عباده آياته، إنما أنزلها داعيا إياهم إلى إعمال عقولهم(١).

ومن ثم فإن فصل الأخلاق عن الاقتصاد والسياسة والاجتماع والطب وسائر العلوم والحياة أمر حرام، وغير مشروع عندنا، بل هو مما يشوه حضارة الإسلام، ويحدث خللا لدى الأفراد والمجتمعات؛ ولا غرو أن تنحية وفصل الأخلاق عن الحياة أسلوب شيطاني(٢).

---

(١) «فى أصول التربية»: ص ٤١٩ وما بعدها بتصرف، دكتور/ محمد الهادى عفيفى، ط. مكتبة الأنجلو المصرية بدون تاريخ، «التربية المقارنة»: ص ٩، نيقولا هانز، ترجمة يوسف ميخائيل أسعد، مراجعة د/ أبو الفتوح رضوان، نشر دار النهضة العربية.

(٢) يراجع: «الخطر اليهودي، بروتوكولات حكماء صهيون»: ص١٣٧ وما بعدها، ترجمة أ. محمد خليفة التونسى، تقديم الأستاذ. عباس محمود العقاد، ط. دار التراث، العاشرة ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م، «اعرف عدوك»: ص ٦٦ وما بعدها، ط. الشؤون المعنوية للقوات المسلحة، «بروتوكولات حكماء صهيون» ص ٣٢ وما بعدها، ترجمة ودراسة وتقديم: على الجوهرى، ط. مكتبة ابن سينا القاهرة.

وهذا الأسلوب الشيطاني ليس له وجود في ثقافتنا الإسلامية ومعارفنا الحضارية، وهو نزوع يثبت الواقع فشله الذريع، وذلك بعد قيام البرهان الواقعي، وثبوت المنطق العقلي على أن الأخلاق عند الإسلاميين في التصور القرآني هي المعيار الحقيقي للإنسان الطالح، ولازال الواقع أيضًا يثبت فشل فصل الأخلاق عن شؤون الحياة في شتى ميادينها خاصة بعد الله‌اث القاتل للإنسان وراء المادة[١]!

## بين يدي سورة ﴿ الحجرات ﴾

### المكان الذي فيه نزلت سورة ﴿ الحجرات ﴾ المباركة:

**قال الإمام البغوي:** مدنية، عدد آياتها: ثماني عشرة آية[٢]، وقال الإمام القرطبي: مدنية بإجماع[٣]، وقال الإمام الخازن: مدنية، وقال الإمام ابن عاشور: مدنية باتفاق أهل التأويل، أي مما نزل بعد الهجرة، وحكى السيوطي في (الإتقان) قولًا شاذًا: أنها مكية ولا يعرف قائل هذا القول[٤]، وفي أسباب النزول للواحدي: أن قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) يراجع بتوسع في هذا الشأن: «الخطر اليهودي، بروتوكولات حكماء صهيون»: ص ١٣٧ وما بعدها، ترجمة: أ. محمد خليفة التونسي، تقديم: أ. عباس محمد العقاد، ط. دار التراث، ط. العاشرة ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م، «اعرف عدوك»: ص٦٦ وما بعدها، ط. الشؤون المعنوية للقوات المسلحة، «بروتوكولات حكماء صهيون»: ص ٣٢ وما بعدها، ترجمة ودراسة وتقديم: أ. علي الجوهري، ط. مكتبة ابن سينا القاهرة.

(٢) «معالم التنزيل في تفسير القرآن»: (٧/ ٣٣٣)، «مُحيي السنة»: أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، المتوفى ٥١٠هـ،حققه وخرج أحاديثه: محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، نشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م، عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٥٤٦) لابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي. عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «نزلت سورة الحجرات بالمدينة».

(٣) «الجامع لأحكام القرآن»: (١٦/ ٣٠٠أ): أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، المتوفى ٦٧١هـ، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

(٤) قلت: «هذا القول حكاه الإمام السيوطي وليس قولًا له هو»، ويراجع: «الإتقان في علوم القرآن»: (١/ ١٣)، ط. المكتبة الثقافية بيروت لبنان بدون تاريخ.

﴿النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ [الحجرات: ١٣]... الآية، نزلت بمكة في يوم فتح مكة، ولم يثبت أن تلك الآية نزلت بمكة، ولم يعدها الإمام السيوطي في (الإتقان) في عداد السور المستثنى بعض آياتها[١].

وقد عد الإمام الزركشى هذه الآية ضمن ما نزل بمكة وحكمه مدني، وقال: «ولها قصة يطول بذكرها الكتاب، ونزولها بمكة يوم فتحها، وهى مدنية لأنها نزلت بعد الهجرة»[٢].

**وقد تتبعت سير الآية المباركة فوجدت قصتها كالتالى:**

**قال ابن إسحق:** «حدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام على باب الكعبة فقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة[٣] أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة[٤] البيت، وسقية الحاج، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا، فيه الدية مغلظة، مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها، يا معشر قريش: إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء، الناس بنوا آدم وآدم من تراب - ثم تلا هذه الآية -: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]»، ثم

---

(١) «التحرير والتنوير» «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» (٢٦/ ٢١٥): محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، المتوفى ١٣٩٣هـ، نشر: الدار التونسية للنشر - تونس، سنة النشر: ١٩٨٤هـ.

(٢) «البرهان في علوم القرآن»: (١/ ١٩٥)، الإمام الزركشى، ط. دار التراث القاهرة.

(٣) «الخصلة المحمودة».

(٤) خدمة.

قال: «يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟» قالوا: «خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم»، قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[١].

فقصة الآية كما ترى لا تدل على مكيتها من قريب ولا من بعيد، وغاية ما هنا لك أن الرسول الكريم ﷺ قد قرأها يوم الفتح الأعظم وهو بمكة المكرمة، وقراءتها في هذا اليوم لا يعني أبدًا مكيتها.

**يقول الإمام الآلوسي:** «السورة مدنية كما قال الحسن وقتادة وعكرمة وغيرهم في مجمع البيان عن ابن عباس إلا آية وهي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾ ولعل من يعتبر ما أخرجه الحاكم في (مستدركه) والبيهقي في (الدلائل) والبزار في (مسنده) من طريق الأعمش عن علقمة عن عبد الله قال: «ما كان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ أنزل بالمدينة وما كان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ فبمكة. يقول: استثنى، والحق أن هذا ليس بمطرد، وذكر الخفاجي أنها في قول شاذ مكية»[٢].

**عدد كلماتها:** ثلاثمائة وثلاث وأربعون كلمة.

**عدد حروفها:** ألف وأربعمائة وستة وسبعون حرفا[٣].

**اسم السورة:** سميت في جميع المصاحف وكتب السنة والتفسير سورة ﴿ ٱلْحُجُرَٰتِ ﴾ وليس لها اسم غيره.

---

(١) «السيرة النبوية»: (٤/ ٤٧) لابن هشام، ط. المكتبة العصرية صيدا بيروت بدون تاريخ، «السيرة النبوية»: (٣/ ٥٧٠) لابن كثير، ط. دار المعرفة بيروت لبنان بدون تاريخ.

(٢) «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني»: المجلد التاسع عشر، جـ ١٣، ص ٢٨٢، الإمام محمود الآلوسي أبو الفضل، ط. الكتب العلمية - بيروت لبنان، الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

(٣) «لباب التأويل في معاني التنزيل»: (٤ / ١٧٥) علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن المعروف بالخازن، المتوفى ٧٤١هـ، تصحيح: محمد علي شاهين، نشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٥هـ.

**ووجه تسميتها به:** أنها ذكر فيها لفظ ﴿ الحجرات ﴾، ونزلت في قصة نداء بني تميم رسول الله ﷺ من وراء حجراته، فعرفت بهذه الإضافة.

**ترتيبها من حيث النزول:** وهي السورة الثامنة بعد المائة في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة المجادلة وقبل سورة التحريم[(١)].

**عام نزولها:** وكان نزول هذه السورة سنة تسع من الهجرة النبوية المباركة، وأول آيها في شأن وفد بني تميم عند قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [الحجرات: ١]، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾. [الحجرات: ٤][(٢)]

**ترتيبها في المصحف الشريف:** السورة (التاسعة والأربعون) وهى بعد سورة الفتح وقبل سورة ﴿ قٓ ﴾.

***أغراض هذه السورة الجليلة:***

قال الإمام فخر الدين عند تفسير قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ [الحجرات: ٦]: «هذه السورة فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق، وهي إما مع الله أو مع رسوله الكريم ﷺ أو مع غيرهما من أبناء الجنس، وهم على صنفين: إما أن يكونوا على طريقة المؤمنين، وداخلين في رتبة الطاعة أو خارجين عنها، وهو الفسوق، والداخل في طائفتهم: إما أن يكون حاضرا عندهم، أو غائبا عنهم فهذه خمسة أقسام،

---

(١) «البرهان في علوم القرآن»: (١/ ١٩٤) الإمام الزركشى، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. دار التراث القاهرة بدون.

(٢) «التحرير والتنوير» «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» (٢٦/ ٢١٥): محمد الطاهر ابن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، المتوفى ١٣٩٣ هـ، نشر: الدار التونسية للنشر - تونس، سنة النشر: ١٩٨٤هـ.

قال: فذكر الله في هذه السورة خمس مرات ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ وأرشد بعد كل مرة إلى مكرمة من قسم من الأقسام الخمسة»[(١)].

وتتعلق أغراضها بحوادث جدت متقاربة كانت سببا لنزول ما فيها من أحكام وآداب.

وأولها تعليم المسلمين بعض ما يجب عليهم من الأدب مع النبي الكريم ﷺ في معاملته وخطابه وندائه، دعا إلى تعليمهم إياها ما ارتكبه وفد بني تميم من جفاء الأعراب لما نادوا الرسول الكريم ﷺ من بيوته كما سيأتي عند قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحجرات: ٤]، ووجوب صدق المسلمين فيما يخبرون به.

والتثبت في نقل الخبر مطلقًا، وأن ذلك من خلق المؤمنين، ومجانبة أخلاق الكافرين والفاسقين، وتطرق إلى ما يحدث من التقاتل بين المسلمين، والإصلاح بينهم لأنهم إخوة، وما أمر الله به من آداب حسن المعاملة بين المسلمين في أحوالهم في السر والعلانية، وتخلص من ذلك إلى التحذير من بقايا خلق الكفر في بعض جفاة الأعراب تقويما لأود نفوسهم[(٢)].

**صلة السورة الكريمة بما قبلها وما بعدها:**

مناسبتها لآخر ما قبلها ظاهر؛ لأنه عَزَّوَجَلَّ ذكر رسول الله ﷺ وأصحابه، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾... إلخ، فربما من المؤمن

(١) «التفسير الكبير»: المجلد ١٤، جـ٢٧: ص ١٠٧، الإمام فخر الدين الرازي، تحقيق: عماد البارودى، ط. المكتبة التوفيقية.

(٢) «التحرير والتنوير» «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»: (٢٦/ ٢١٥) محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، المتوفى ١٣٩٣هـ نشر: الدار التونسية للنشر - تونس، سنة النشر: ١٩٨٤هـ.

عامل الصالحات يعمل بعض شيء مما ينبغي أن ينهي عنه، فقال جَلَّوَعَلَا تعليما للمؤمنين وتهذيبا لهم[١].

﴿ لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾، ولا يخفى تواخيها مع ما قبلها لكونهما مدنيتين مشتملتين على أحكام وتلك فيها قتال الكفار، وهذه فيها قتال البغاة، وتلك ختمت بالذين آمنوا، وهذه افتتحت بالذين آمنوا وتلك تضمنت تشريفات له ﷺ خصوصا مطلعها، وهذه أيضًا في مطلعها أنواع من التشريف له ﷺ[٢].

**ويقول شيخنا الأستاذ المراغي:** «ومناسبتها لما قبلها من وجوه: ذكر في هذه قتال البغاة، وفى تلك قتال الكفار، إن السابقة ختمت بالذين آمنوا، وافتتحت هذه بهم».

إن كلا منهما تضمن تشريفًا وتكريمًا للرسول الكريم ﷺ ولاسيما في مطلعيهما[٣].

***مناسبتها لما بعدها:***

لما ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آخر سورة ﴿ الحجرات ﴾ المباركة عما يحيط به علمه، ويدركه بصره من القرآن المنظور، وذلك في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحجرات: ١٨] أتبعه بذكر أعظم ما يحيط به من قرآن مسطور فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في أول سورة ﴿ ق ﴾: ﴿ قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾، وهو أيضًا من جملة نعمه العظيمة، وآلائه الجسيمة، والذى يجب أن يضبط. الناس أعمالهم على إيقاعه، حتى تستقيم منظومة حياتهم النيوية والأخروية، إن عملوا بمقتضاه، وآمنوا بهديه، وطبقوا شرعه.

---

(١) «تفسير البحر المحيط»: (٨ / ١٠٥) الإمام أبى حيان، ط. دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

(٢) «روح المعان»: المجلد التاسع عشر، الجزء ١٣، ص ٢٨٤.

(٣) «تفسير المراغى»: (٩/ ١١٩): الأستاذ الأكبر أحمد مصطفى المراغى، ط. دار الفكر.

**ما تعالجه السورة الجليلة:**

هذه السورة التي لا تتجاوز ثماني عشرة آية، سورة جليلة ضخمة، تتضمن حقائق كبيرة من حقائق العقيدة والشريعة، ومن حقائق الوجود والإنسانية حقائق تفتح للقلب وللعقل آفاقًا عالية وآمادًا بعيدة؛ وتثير في النفس والذهن خواطر عميقة ومعاني كبيرة؛ وتشمل من مناهج التكوين والتنظيم، وقواعد التربية والتهذيب، ومبادئ التشريع والتوجيه، ما يتجاوز حجمها وعدد آياتها مئات المرات! وهي تبرز أمام النظر أمرين عظيمين للتدبر والتفكير.

**وأول ما يبرز للنظر عند مطالعة السورة..** هو أنها تكاد تستقل بوضع معالم كاملة، لعالم رفيع كريم نظيف سليم؛ متضمنة القواعد والأصول والمبادئ والمناهج التي يقوم عليها هذا العالم؛ والتي تكفل قيامه، أولًا، وصيانته أخيرًا.. عالم يصدر عن الله، ويتجه إلى الله، ويليق أن ينتسب إلى الله.. عالم نقي القلب، نظيف المشاعر، عف اللسان، وقبل ذلك عف السريرة.. عالم له أدب مع الله، وأدب مع رسوله، وأدب مع نفسه، وأدب مع غيره، أدب في هواجس ضميره، وفي حركات جوارحه. وفي الوقت ذاته له شرائعه المنظمة لأوضاعه، وله نظمه التي تكفل صيانته، وهي شرائع ونظم تقوم على ذلك الأدب، وتنبثق منه، وتتسق معه؛ فيتوافق باطن هذا العالم وظاهره. وتتلاقى شرائعه ومشاعره، وتتوازن دوافعه وزواجره؛ وتتناسق أحاسيسه وخطاه، وهو يتجه ويتحرك إلى الله.. ومن ثم لا يوكل قيام هذا العالم الرفيع الكريم النظيف السليم وصيانته، لمجرد أدب الضمير ونظافة الشعور؛ ولا يوكل كذلك لمجرد التشريع والتنظيم. بل يلتقي هذا بذلك في انسجام وتناسق. كذلك لا يوكل لشعور الفرد وجهده، كما لا يترك لنظم الدولة وإجراءاتها، بل يلتقي فيه الأفراد بالدولة، والدولة بالأفراد، وتتلاقى واجباتها ونشاطها في تعاون واتساق.

هو عالم له أدب مع الله، ومع رسول الله. يتمثل هذا الأدب في إدراك حدود العبد أمام الرب، والرسول الذي يبلغ عن الرب: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.. فلا يسبق العبد المؤمن إلهه في أمر أو نهي، ولا يقترح عليه في قضاء أو حكم؛ ولا يتجاوز ما يأمر به وما ينهى عنه؛ ولا يجعل لنفسه إرادة أو رأيًا مع خالقه.. تقوى منه وخشية، وحياء منه وأدبًا.. وله أدب خاص فيه خطاب رسول الله ﷺ وتوقيره: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ٢-٥].

وهو عالم له منهجه في التثبت من الأقوال والأفعال، والاستيثاق من مصدرها، قبل الحكم عليها. يستند هذا المنهج إلى تقوى الله، وإلى الرجوع بالأمر إلى رسول الله، في غير ما تقدم بين يديه، ولا اقتراح لم يطلبه ولم يأمر به: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحجرات: ٦-٨].

وهو عالم له نظمه وإجراءاته العملية في مواجهة ما يقع فيه من خلاف وفتن وقلاقل واندفاعات، تخلخل كيانه لو تركت بغير علاج. وهو يواجهها بإجراءات عملية منبثقة من قاعدة الأخوة بين المؤمنين، ومن حقيقة العدل والإصلاح، ومن تقوى الله والرجاء في

رحمته ورضاه: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات: ٩-١٠].

وهو عالم له آدابه النفسية في مشاعره تجاه بعضه البعض؛ وله آدابه السلوكية في معاملاته بعضه مع بعض: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات: ١١].

وهو عالم نظيف المشاعر، مكفول الحرمات، مصون الغيبة والحضرة، لا يؤخذ فيه أحد بظنة، ولا تتبع فيه العورات، ولا يتعرض أمن الناس وكرامتهم وحريتهم فيه لأدنى مساس: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾. [الحجرات: ١٢]

وهو عالم له فكرته الكاملة عن وحدة الإنسانية المختلفة الأجناس المتعددة الشعوب، وله ميزانه الواحد الذي يقوّم به الجميع. إنه ميزان الله المبرأ من شوائب الهوى والاضطراب: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

والسورة بعد عرض هذه الحقائق الضخمة التي تكاد تستقل برسم معالم ذلك العالم الرفيع الكريم النظيف السليم، تحدد معالم الإيمان، الذي باسمه دُعي المؤمنون إلى إقامة ذلك العالم، وباسمه هُتف لهم ليلبوا دعوة الله الذي يدعوهم إلى تكاليفه بهذا الوصف الجميل، الحافز إلى التلبية والتسليم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾.. ذلك النداء الحبيب الذي يخجل من يدعى به من الله أن لا يجيب؛ والذي ييسر كل تكليف ويهون كل مشقة، ويشوق كل قلب فيسمع ويستجيب: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾.
[الحجرات: ١٤-١٦]

وتكشف السورة في ختامها عن ضخامة الهبة الإلهية للبش، هبة الإيمان التي يمن بها على من يشاء، وفق ما يعلمه فيه من استحقاق: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحجرات: ١٧-١٨].

**الثاني الذي يبرز للنظر من خلال السورة ومن مراجعة المناسبات الواقعية التي صاحبت نزول آياتها..** فهو هذا الجهد الضخم الثابت المطرد، الذي تمثله توجيهات القرآن الكريم، والتربية النبوية الحكيمة، لإنشاء وتربية تلك الجماعة المسلمة، التي تمثل ذلك العالم الرفيع الكريم النظيف السليم، الذي وجدت حقيقته يومًا على هذه الأرض؛ فلم يعد منذ ذلك الحين فكرة مثالية، ولا حلمًا طائرًا، يعيش في الخيال!

هذه الجماعة المثالية التي تمثلت حقيقة واقعة في فترة من فترات التاريخ لم تنبت فجأة ولم توجد مصادفة؛ ولم تخلق بين يوم وليلة. كذلك لم تظهر نتيجة نفحة تغير طبائع الأشياء كلها في لحظة أو ومضة، بل نمت نموًا طبيعيًا بطيئًا كما تنمو الشجرة الباسقة العميقة الجذور،

وأخذت الزمن اللازم لنموها، كما أخذت الجهد الموصول الثابت المطرد الضروري لهذا النمو، واحتاجت إلى العناية الساهرة، والصبر الطويل، والجهد البصير في التهذيب والتشذيب، والتوجيه والدفع، والتقوية والتثبيت، واحتاجت إلى معاناة التجارب الواقعية المريرة والابتلاءات الشاقة المضنية؛ مع التوجيه لعبرة هذه التجارب والابتلاءات.. وفى هذا كله كانت تتمثل الرعاية الإلهية لهذه الجماعة المختارة - على علم - لحمل هذه الأمانة الكبرى؛ وتحقيق مشيئة الله بها في الأرض، وذلك مع الفضائل الكامنة والاستعدادات المكنونة في ذلك الجيل؛ وفى الظروف والأحوال المهيأة له على السواء.. وبهذا كله أشرقت تلك الومضة العجيبة في تاريخ البشرية؛ ووجدت هذه الحقيقة التي تتراءى من بعيد وكأنها حلم مرفرف في قلب، أو رؤيا مجنحة في خيال[1]!.

(١) «فى ظلال القرآن»: (٦/ ٣٣٣٥ ٣٣٣٧) بتصرف الإمام الشهيد سيد قطب، ط. دار الشروق الخامسة عشرة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

## الفصل الأول

# تربية المؤمنين

## على كيفية التعامل مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ورسوله الكريم ﷺ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١].

**أسباب النزول:**

عن عبد الله بن الزبير أنه قدم ركب من بني تميم على النبي الكريم ﷺ فقال أبو بكر: أَمِّرْ القعقاع بن معبد، وقال عمر: بل أَمِّرْ الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردتَ إلا خلافي، فقال عمر: ما أردتُ خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزل في ذلك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ حتى انقضت الآية[(١)].

**وعن عبد الرزاق قال:** «أخبرنا معمر، عن قتادة، في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[(١)] قال: إن ناسًا كانوا يقولون: لولا أنزل في كذا، لولا أنزل في كذا».

**قال معمر، وقال الحسن:** «هم قوم ذبحوا قبل أن يصلي[(٢)] النبي ﷺ فأمرهم النبي الكريم فأعادوا الذبح»[(٣)].

---

(١) **الحديث صحيح**: أخرجه البخاري في كتاب «التفسير» [٦٥]، سورة: (الحجرات)، باب: (إن الذين ينادونك)، المجلد: (٨/ ٧٥٣)، رقم الحديث: [٤٨٤٧] بـ«فتح الباري شرح صحيح البخاري» لابن حجر العسقلاني، ط. دار السلام، الفيحاء، الأولى ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م، و«أسباب النزول» للواحدي: ص [٢٨٣]، ط. دار زهران بدون تاريخ.

(٢) صلاة عيد الأضحى.

(٣) «تفسير القرآن» لعبد الرزاق الصنعاني: (٣/ ٢١٨)، بتحقيق د. محمود محمد عبده، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الأولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩م.

وأخرج الطبري بسنده الصحيح عن مجاهد، في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ قال: «لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشيء حتى يقضيه الله على لسانه»[1]، وقال القرطبي: «واختلف في سبب نزولها على أقوال خمسة:

**الأول** - ما ذكره الواحدي من حديث ابن جريج قال: حدثني ابن أبي مليكة أن عبد الله ابن الزبير أخبره أنه قدم ركب من بني تميم على رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: أمر القعقاع بن معبد، وقال عمر: أمر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي. وقال عمر: ما أردت خلافك. فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ - إلى قوله - ﴿... وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ ...﴾.

[رواه البخاري عن الحسن بن محمد بن الصباح، ذكره المهدوي أيضًا]

**الثاني** - ما روي أن النبي الكريم ﷺ أراد أن يستخلف على المدينة رجلًا إذا مضى إلى خيبر، فأشار عليه عمر برجل آخر، فنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [ذكره المهدوي أيضًا].

**الثالث** - ما ذكره الماوردي عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ أنفذ أربعة وعشرين رجلًا من أصحابه إلى بني عامر فقتلوهم، إلا ثلاثة تأخروا عنهم فسلموا وانكفأوا إلى المدينة، فلقوا رجلين من بني سليم فسألوهما عن نسبهما فقالا: من بني عامر لأنهم أعز من بني سليم فقتلوهما، فجاء نفر من بني سليم إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن بيننا وبينك عهدًا، وقد قتل منا رجلان، فوداهما النبي ﷺ بمائة بعير، ونزلت عليه هذه الآية في قتلهم الرجلين.

---

(١) موسوعة «الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور»: (٤/ ٣٦٤)، أ.د/ حكمت بن بشير بن ياسين، الناشر: دار المآثر للنشر والتوزيع والطباعة- المدينة النبوية، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م.

**الرابع** - وقال قتادة: إن ناسًا كانوا يقولون: لو أنزل في كذا، لو أنزل في كذا؟ فنزلت هذه الآية. ابن عباس: «نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه»، مجاهد: «لا تفتاتوا على الله ورسوله حتى يقضي الله على لسان رسوله» [ذكره البخاري أيضًا].

**الخامس** - قال الحسن: نزلت في قوم ذبحوا قبل أن يصلي رسول الله ﷺ، فأمرهم أن يعيدوا الذبح. ابن جريج: «لا تقدموا أعمال الطاعات قبل وقتها الذي أمر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به ورسوله ﷺ».

قلت: هذه الأقوال الخمسة المتأخرة ذكرها القاضي أبو بكر بن العربي، وسردها قبله الماوردي. قال القاضي: وهي كلها صحيحة تدخل تحت العموم، فالله أعلم ما كان السبب المثير للآية منها، ولعلها نزلت دون سبب، والله أعلم.

**قال القاضي:** «إذا قلنا إنها نزلت في تقديم الطاعات على أوقاتها فهو صحيح؛ لأن كل عبادة مؤقتة بميقات لا يجوز تقديمها عليه كالصلاة والصوم والحج، وذلك بين، إلا أن العلماء اختلفوا في الزكاة، لما كانت عبادة مالية، وكانت مطلوبة لمعنى مفهوم، وهو سد خلة الفقير، ولأن النبي ﷺ استعجل من العباس صدقة عامين، ولما جاء من جمع صدقة الفطر قبل يوم الفطر حتى تعطى لمستحقيها يوم الوجوب، وهو يوم الفطر، فاقتضى ذلك كله جواز تقديمها العام والاثنين. فإن جاء رأس العام والنصاب بحاله وقعت موقعها، وإن جاء رأس العام، وقد تغير النصاب تبين أنها صدقة تطوع».

**وقال أشهب:** «لا يجوز تقديمها على الحول لحظة كالصلاة، وكأنه طرد الأصل في العبادات، فرأى أنها إحدى دعائم الإسلام، فوفاها حقها في النظام وحسن الترتيب، ورأى سائر علمائنا أن التقديم اليسير فيها جائز؛ لأنه معفو عنه في الشرع بخلاف الكثير».

وما قاله أشهب أصح، فإن مفارقة اليسير الكثير في أصول الشريعة صحيح، ولكنه لمعان تختص باليسير دون الكثير. فأما في مسألتنا فاليوم فيه كالشهر، والشهر كالسنة. فإما تقديم كلي كما قاله أبو حنيفة والشافعي، وإما حفظ العبادة على ميقاتها كما قال أشهب[١].

**فقه المعاني:**

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أقِّروا بوحدانية الله، وبنبوة نبيه الكريم محمد ﷺ ﴿ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ يقول: لا تعجلوا بقضاء أمر في حروبكم أو دينكم، قبل أن يقضي الله لكم فيه ورسوله، فتقضوا بخلاف أمر الله وأمر رسوله، محكيّ عن العرب: فلان يقدّم بين يدي إمامه، بمعنى يعجل بالأمر والنهي دونه[٢].

فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ ﴾ أصل في ترك التعرض لأقوال النبي ﷺ، وإيجاب اتباعه والاقتداء به، وكذلك قال النبي ﷺ في مرضه: «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**». فقالت عائشة لحفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قولي له إن أبا بكر رجل أسيف، وإنه متى يقم مقامك لا يسمع الناس من البكاء، فمر عمر فليصل بالناس. فقال ﷺ: «**فإنكن لأنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس**»[٣]. فمعنى قوله: صواحب يوسف الفتنة بالرد عن الجائز إلى غير الجائز. وربما احتج بغاة القياس بهذه الآية. وهو باطل منهم، فإن ما قامت دلالته فليس في فعله تقديم بين يديه. وقد قامت دلالة الكتاب والسنة على وجوب القول بالقياس في فروع الشرع، فليس إذًا تقدم بين يديه.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن»: (١٦/ ٣٠٠) وما بعدها بتصرف يسير.

(٢) «جامع البيان في تأويل القرآن»: (٢٢/ ٢٧٢) محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، [ ٢٢٤ - ٣١٠ هـ ] بتحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م.

(٣) **الحديث صحيح**: أخرجه البخاري، كتاب «الآذان» باب: (حد المريض أن يشهد الجماعة) (١/ ١٣٤)، الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ يعني في التقدم المنهي عنه. إن الله سميع لقولكم عليم بفعلكم[١].

وأصل ذلك عندنا من قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ .. ﴾... الآية، أي: يَا أَيُّهَا الذين آمنوا اعلموا أن لله الخلق والأمر، لا تقدموا أمرًا، ولا قولًا، ولا فعلًا، ولا حكمًا ولا نهيًا سوى ما أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به ورسوله ﷺ وغير ما نهى عنه؛ بل اتبعوا أمره ونهيه، وراقبوه على ما آمنتم به وأقررتم بأن له الخلق والأمر، فاحفظوا أمره ونهيه، ولا تخالفوه ولا رسوله في شيء من الأمر والنهي، فهذا يدخل فيه كل شيء وكل أمر من القول، والفعل، والقضاء والحكم، والذبح، وغير ذلك؛ على ما ذكرنا من إيمانهم بأن له الخلق والأمر في الخلق؛ إذ مثل هذا الخطاب لو كان لواحد خاص لكان حكمه يلزم الكل، وكذلك لو كان في أمر واحد وفعل واحد، كان يدخل في ذلك جميع الأمور، فكيف والخطاب بذلك عام مطلق؟! فهو للكل، وفي كل الأمور، والله الموفق.

وعلى ذلك ما روي عن مسروق أنه دخل على عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فأمرت الجارية أن تسقيه، فقال: إني صائم - وهو اليوم الذي يشك فيه - فقالت له: قد نهي عن هذا، وتلت قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ في صيام ولا غيره.

اعتبرت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عموم الآية في النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله ومخالفة النبي الكريم ﷺ في كل قول أو فعل.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي: اتقوا مخالفة أمر الله ونهيه قولًا وفعلًا، واتقوا مخالفة رسوله فيما يأمركم بأمر الله ونهيه، وفي كل ما دعاكم إليه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ لأقوالكم (عَلِيمٌ) بأقوالكم وأعمالكم، ولا قوة إلا بالله.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن»: (١٦/ ٣٠٠) وما بعدها بتصرف يسير.

ثم لم يفهموا مما ذكر في قوله: ﴿ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ الجوارح ولا العدد في اليد كما فهموا من ذلك في الخلق، فما بالهم يفهمون ذلك من قوله: ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾، أي: خلقته على علم مني بما يكون منه من خلاف أو معصية، لم أخلقه عن جهل بما يكون منه، وهو ما ذكر في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾، و﴿ خَبِيرٌ ﴾ أي: عن علم بأحوالهم وما يكون منهم أنشأهم لا عن جهل بذلك، فعلى ذلك هذا، كما فهموا من قوله: ﴿ لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ ﴾ أمر الله ونهيه دون الجوارح والعدد، والله الموفق[1].

***ما يُستفاد من الآية المباركة من آداب تربوية:***

❁ التأدب بأخذ الحذر الشديد، والحيطة الأكيدة، في التعامل مع الله ورسوله الكريم ﷺ.

❁ التربية على عدم التسرع في إبداء الآراء، أو تقديم الأحكام، أو إقامة الأفعال، في أمر ينتظر أن يقضي الله فيه بأمره، ويوحى فيه بحكمه، ويبرم فيه بقضائه، ويقدم الرسول الكريم ﷺ ببيانه، ويستجلى فيه بتفسيره وإيضاحه.

❁ التأدب والتربية على تعظيم مقام النبى الكريم ﷺ، فالإتيانُ بلفظ الجلالة ﴿ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ وعطف الرسول الكريم ﷺ عليه فيه من تعظيم مقام حضرة النبي الكريم ﷺ، ومن تفظيع تقديم الرأي عليه ما لا يخفى، فقد جعل الله التقديم بين يدي الله وبين يدي رسوله الكريم ﷺ سواء بسواء في الحكم والتقدير.

❁ التربية بالترهيب الذى جاء في خاتمة الآية المباركة المستفاد من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ سَمِيعٌ

---

(١) تفسير الماتريدي «تأويلات أهل السنة»: (٩/ ٣٢٢) محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي، المتوفى ٣٣٣هـ، بتحقق: د/ مجدي باسلوم، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م.

عَلِيمٌ ﴾ أمر ضروري، حيث إن الموقف موقف نهى عن تقديم أمر النفس على أمر الله ورسوله الكريم ﷺ وهو ما يتطلب معه استصحاب أسلوب ترهيب للمؤمنين عما نهى الله عنه، وهو أدب رباني جم، فهو سبحانه دائم السمع بليغه بحيث لا تغيب عنه جميع الصوتيات بمختلف إيقاعاتها، ولا المعلومات بشتى تياراتها واتجاهاتها وانعكاساتها.

# الفصل الأول

## تربية المؤمنين

## على كيفية التعامل مع نبينا الكريم ﷺ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ۝٤ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [الحجرات: ٢-٥].

### أسباب النزول:

**الأول** - عن ابن أبي مليكة قال: كاد الخيران أن يهلكا؛ أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ، حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع ابن حابس رضي الله عنه أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر، فقال: أبو بكر لعمر رضي الله عنهما: ما أردت إلا خلافي. قال: ما أردت خلافك، فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾.

**قال ابن الزبير** رضي الله عنه: «فما كان عمر رضي الله عنه يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه»[1].

---

(١) **الحديث صحيح**: أخرجه البخاري برقم [٤٣٦٦، ٤٨٤٥، ٧٣٠٢]، والترمذي برقم: [٣٢٦٦]، والنسائي في «التفسير» برقم [٥٣٤] من طريق ابن أبي مليكة عن عبد الله بن الزبير.

**الثاني** - عَنْ مُوسَى بْنِ أَنَسٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ افْتَقَدَ ثَابِتَ بْنَ قَيْسٍ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله، أَنَا أَعْلَمُ لَكَ عِلْمَهُ، فَأَتَاهُ، فَوَجَدَهُ جَالِسًا فِي بَيْتِهِ، مُنَكِّسًا رَأْسَهُ، فَقَالَ لَهُ: مَا شَأْنُكَ؟ فَقَالَ: شَرٌّ، كَانَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَأَتَى الرَّجُلُ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَالَ كَذَا وَكَذَا - فَقَالَ مُوسَى -: فَرَجَعَ إِلَيْهِ الْمَرَّةَ الآخِرَةَ بِبِشَارَةٍ عَظِيمَةٍ، فَقَالَ: «اذْهَبْ إِلَيْهِ، فَقُلْ لَهُ: إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَلَكِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»(١).

**الثالث** - أن بني تميم جاؤوا إلى رسول ﷺ فنادوا على الباب: يا محمد، اخرج إلينا، فإن مدحنا زين وإن ذمنا شين، فخرج وهو يقول: «إنما ذلكم الله» فقالوا: ما بالشعر بعثت، ولا بالفخار أمرت، ولكن هاتوا، فقال الزبرقان بن بدر لشاب منهم: قم فاذكر فضلك وفضل قومك، فقام فذكر ذلك، فأمر رسول ﷺ ثابت ابن قيس فأجابه، وقام شاعرهم فأجابه حسان، فقال الأقرع بن حابس: والله ما أدري ما هذا الأمر، تكلم خطيبنا فكان خطيبهم أحسن قولا، وتكلم شاعرنا فكان شاعرهم أشعر، ثم دنا فأسلم، فأعطاهم رسول ﷺ وكساهم، وارتفعت الأصوات، وكثر اللغط عند رسول ﷺ فنزلت هذه الآية. هذا قول جابر بن عبد الله في آخرين. وقال ابن اسحاق: نزلت في جفاة بني تميم، وكان فيهم الأقرع ابن حابس، وعيينة بن حصن، والزبرقان بن بدر، وقيس بن عاصم المنقري، وخالد ابن مالك، وسويد بن هشام، وهما نهشليان، والقعقاع بن معبد، وعطاء ابن حابس، ووكيع بن وكيع.

---

(١) **الحديث صحيح**: أخرجه البُخَارِي (٤/ ٢٤٤) بحديث رقم [٣٦١٣]، و(٦/ ١٧١) حديث رقم [٤٨٤٦] قال: حدَّثنا علي بن عَبْد الله، حدَّثنا أَزْهَر بن سَعْد، أخبرنا ابن عَوْن، قال: أنبأني مُوسَى بن أَنَس، فذكره.

**الرابع** - أن رسول ﷺ بعث سرية إلى بني العنبر، وأمر عليهم عيينة بن حصن الفزاري، فلما علموا بذلك هربوا وتركوا عيالهم، فسباهم عيينة، فجاء رجالهم يفدون الذراري فقدموا وقت الظهيرة، ورسول ﷺ قائل: فجعلوا ينادون: يا محمد، اخرج إلينا حتى أيقظوه، فنزلت هذه الآية. [قاله ابن عباس].

**الخامس** - أن ناسًا من العرب قال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يكن نبيا نكن أسعد الناس به، وإن يكن ملكا نعش في جناحه، فجاؤوا فجعلوا ينادون: يا محمد، يا محمد، فنزلت هذه الآية. [قاله زيد بن أرقم][1].

**فقه المعاني:**

- قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾ فيه قولان: أحدهما - أن الجهر بالصوت في المخاطبة. [قاله الأكثرون]، والثاني - لا تدعوه باسمه يا محمد كما يدعو بعضكم بعضا، ولكن قولوا: يا رسول الله، ويا نبي الله، وهو معنى قول سعيد بن جبير والضحاك ومقاتل.

- قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿أَن تَحْبَطَ﴾: قال ابن قتيبة: لئلا تحبط، وقال الأخفش: مخافة أن تحبط، وقال أبو سليمان الدمشقي: وقد قيل معنى الإحباط هاهنا نقص المنزلة لا إسقاط العمل من أصله كما يسقط بالكفر.

- قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ﴾: قال ابن عباس: لما نزل قوله: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ تألى أبو بكر أن لا يكلم رسول ﷺ إلا كأخي السرار فأنزل الله في أبي بكر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ﴾[2].

---

(١) «زاد المسير في علم التفسير»: عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٤، «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم»: (٨/ ١١٦ - ١١٨) محمد بن محمد العمادي أبو السعود، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الثانية ١٤١١ هـ - ١٩٩٠م.

(٢) المرجع السابق نفس الصفحات.

وعن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يكلمه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كأخي السرار لا يسمعه حتى يستفهمه.

وكان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا قدم على رسول ﷺ الوفود أرسل إليهم من يعلمهم كيف يسلمون ويأمرهم بالسكينة والوقار عند رسول ﷺ[1]. والغض: النقص.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾. قال ابن عباس: أخلصها للتقوى من المعصية، وقال الزجاج: اختبر قلوبهم فوجدهم مخلصين كما تقول قد امتحنت هذا الذهب والفضة أي اختبرتهما بأن أذبتهما حتى خلصا، فعلمت حقيقة كل واحد منهما، وقال ابن جرير اختبرها بامتحانه إياها فاصطفاها وأخلصها للتقوى.

ولا يفهم من سياق ما سبق أن إكرامه وإجلاله وتعظيمه كإجلال وتعظيم الجبارين، من الملوك المترفين، والسلاطين المستبدين، والأمراء المستكبرين، والحكام المتغطرسين.

كلا، لأن إجلالهم إنما تعود أسبابه إلى دوافع الخوف من بطشهم، والرهبة من ظلمهم، والفزع من جبروتهم، والهلع من طغيانهم!

وأما هو ﷺ فسياج توقيره المحبة، واستشعار أن العيش في رحابه نعمة لا تطاولها نعمة، والاهتداء بسنته سعادة ليس بعدها سعادة، والسير على منهجه خلاصة لذات الحياة، والتعطر بسيرته منتهى المتعة والفرحة والسرور!!

ولا غرو أن أفضل أنواع الإجلال والإعظام والإكبار والاحترام هو ما كان أكبر دواعيه المحبة الخالصة لوجه الله جَلَّ وَعَلَا.

واستشعار تحصيل أنواع الفوائد الدينية والأخلاقية والنفسية والاجتماعية والسلوكية والتربوية وغير ذلك من الفوائد والعوائد الدنيوية والأخروية!!

(١) المرجع السابق.

وهذا هو ما عليه خاصة المؤمنين الذين مَلَكَ الإيمان قلوبهم، وهم المعنيون بقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحجرات: ٣].

**معنى امتحان القلوب:** اختبارها وابتلاؤها بأنواع المحن، وغاية الامتحان الفوز بصفاء القلوب وإخلاصها ونقائها ليتبين صدقُ الصادقين وادعاء الكاذبين المنافقين، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾.

[العنكبوت: ٣]

فعدم قطع الأمور، وعدم الجزم بها، وعدم رفع الصوت، وكذا عدم تقديم الذوق والحس والفهم والعلم والثقافة والفن والمعرفة والعمل يدخل ضمن باب ﴿ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ ﴾، وهو من باب امتحان القلوب.

***المواضع التي تمتحن فيها القلوب:***

**أولًا - أركان الإسلام:**

فعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت»[(١)].

**ثانيًا - أركان الإيمان:**

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

---

(١) الحديث صحيح: أخرجه البخاري (١/ ١٠)، ومسلم (١/ ٣٥)، والنسائي (٢/ ٢٦٨)، والترمذي (٢/ ١٠١) وأحمد (٢/ ١٤٣) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، «إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل» محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٥ - ١٩٨٥م.

فعن أبي موسى قال: أتى رسول ﷺ جبريل في صورة أعرابي ورسول ﷺ لا يعرفه فقال: يا محمد، ما الإيمان؟ قال: «أن تؤمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين والبعث بعد الموت والقدر خيره وشره»، قال: فإذا فعلت ذلك فأنا مؤمن؟ قال: «نعم»، قال: «صدقت»(١).

**ثالثًا - العلم بجميع فروع تخصصاته:**

فعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «من تعلم علمًا مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»(٢).

ويدخل معه العمل في جميع حقول التربية والتعليم والتثقيف والدعوة، والخلاف والجدل والمناظرة. فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من ترك المراء وهو مبطل بنى الله له بيتًا في ربض الجنة، ومن ترك المراء وهو محق بنى الله له بيتًا في أعلى الجنة»(٣).

**رابعًا - الشهوات:**

قال جل وعلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [التغابن: ١٤-١٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ

(١) الحديث صحيح: «كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال» (٢/ ٢٧٥) علي بن حسام الدين المتقي الهندي، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٨٩م.

(٢) الحديث صحيح: أخرجه أبو داود، كتاب «العلم» باب: (في طلب العلم لغير الله) برقم الحديث [٣٦٤٧].

(٣) الحديث حسن: أخرجه الترمذي، وابن ماجه من حديث أنس مع اختلاف، قال الترمذي: حسن.

عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾.

[آل عمران: ١٤-١٥]

وقال تقدست أسماؤه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سبأ: ٣٤-٣٩]

وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ أَبِي عَيَّاشٍ الزُّرَقِيِّ، عَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَامِرٍ الأَنْصَارِيَّةِ؛ أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ الله ﷺ يَقُول: «إِنَّ الدُّنْيَا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، وَإِنَّ رِجَالًا سَيَخَوَّضُونَ فِي مَالِ الله عَزَّوَجَلَّ بِغَيْرِ حَقٍّ، لَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١).

وسئل سيدنا عمر عن رجل يشتهي الشهوة ولا يأتيها، ورجلٍ لا يشتهيها ولا يأتيها فأيهما خير؟ فقال: الذي يشتهي الشهوة ولا يأتيها خير من صاحبه الذي لا يشتهي ولا يأتي ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [الحجرات: ٣].

**خامسًا - الشبهات:**

لحديث النعمان بن بشير أن رسولنا الكريم ﷺ قال: «الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في

(١) الحديث صحيح: أخرجه أحمد (٦/ ٤١٠)، وعبد بن حميد [١٥٨٧]، و«البُخَارِي» (٤/ ١٠٣).

الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا إن حمى الله في أرضه محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب»(١).

**سادسًا - الفتن:**

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [العنكبوت: ١-٤].

وقال تقدس وتعاظم: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾.
[الفرقان: ٢٠]

**وأخرج أحمد في (مسنده):** كنا عند عمر. فقال: أيكم سمع رسول الله ﷺ يذكر الفتن؟ فقال قوم: نحن سمعناه. فقال: لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وجاره؟ قالوا: أجل. قال: تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة. ولكن أيكم سمع النبي ﷺ يذكر الفتن التي تموج موج البحر. قال حذيفة: فأسكت القوم. فقلت: أنا. قال: أنت، لله أبوك! قال حذيفة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تعرض الفتن على القلوب على قلبين، على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض. والآخر أسود مربادا، كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا، إلا ما أشرب من هواه**». قال حذيفة: وحدثته؛ أن بينك وبينها بابًا مغلقا يوشك أن يكسر. قال عمر: أكسرا، لا أبا

---

(١) **الحديث صحيح:** أخرجه البخاري كتاب «الإيمان» باب: (فضل من استبرأ لدينه) [٥٢]، ومسلم كتاب «المساقاة» باب: (أخذ الحلال وترك الشبهات) [١٥٩٩]، [١٠٧].

لك! فلو أنه فتح لعله كان يعاد، قلت: لا. بل يكسر. وحدثته؛ أن ذلك الباب رجل يقتل أو يموت، حديثا ليس بالأغاليط»[(١)].

**سابعًا - الرئاسة والمنصب:**

قال سبحانه: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ [الزخرف: ٥١-٥٦].

وقال جلَّت قدرته: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ [الحاقة: ٢٥-٣٤].

قال مالك الملك: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾.

[ص: ٢٦]

**قال الطبراني بسنده:** حدثني زر بن حبيش قال: لما أنكر الناس سيرة الوليد بن عقبة ابن أبي معيط، فزع الناس إلى عبد الله بن مسعود، فقال لهم عبد الله بن مسعود:

---

(١) **الحديث صحيح:** أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٣٨٦) [٢٣٦٦٩] و(٥/ ٤٠٥) [٢٣٨٣٣] قال: حدَّثنا يَزِيد، أنبأنا أبو مالك، ومسلم (١/ ٨٩) [٢٨٦] قال: حدَّثنا مُحَمد بن عَبْد الله بن نُمَيْر به، قال أبو خالد الأَحْمَر: فقلتُ لسَعْدٍ: يا أبا مالك، «ما أَسْوَدُ مُرْبَادًّا؟» قال: شدة البياض في سواد، قال: قُلْتُ: «فما الْكُوزُ مُجَخِّيًا؟» قال: منكوسًا.

اصبروا، فإن جور إمام خمسين عاما خير من هرج شهر، وذلك أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لابد للناس من إمارة برة أو فاجرة، فأما البرة فتعدل في القسم، ويقسم بينكم فيؤكم بالسوية، وأما الفاجرة فيبتلى فيها المؤمن، والإمارة الفاجرة خير من الهرج»، قيل: يا رسول الله، وما الهرج؟ قال: «القتل والكذب»(١).

**ثامنًا - الحسب والنسب والجاه:**

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [لقمان: ٣٣].

- ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الممتحنة: ٣].

- ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

- ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٤].

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا، إنما هم فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعل الذي يدهده الخراء بأنفه، إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء إنما هو مؤمن تقي أو فاجر شقي، الناس كلهم بنو آدم، وآدم خلق من تراب»(٢).

---

(١) الحديث لابأس بإسناده: ذكره الهيثمي في «المجمع» [٩١٢٤] وقال: رواه الطبراني، وفيه وهب الله بن رزق ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات، وقال العراقي في تخريج «الاحياء»: إسناده لا بأس به.

(٢) الحديث صحيح: «صحيح الترمذي»: (٣/ ٢٥٤).

قال ابن عبدة: أخبرنا، وقال الآخرون: حدثنا سفيان بن عيينة قال: سمع عمرو جابر بن عبد الله يقول: كنا مع النبي ﷺ في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال رسول ﷺ: «ما بال دعوى الجاهلية؟» قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار فقال: دعوها فإنها منتنة[١] والحديث في (الصحيحين) هذا مع أن لفظ مهاجري وأنصاري مشروعة في الأصل، وبذلك نعتهم القرآن والسنة، لكن لما كان المراد هنا غير المراد الشرعي عد النبي ﷺ ذلك جاهلية، قال الإمام ابن تيمية: وكل ما خرج عن دعوة الإسلام والقرآن من نسب أو بلد أو جنس أو مذهب أو طريقة فهو من عزاء الجاهلية.

وعن المعرور قال: لقيت أبا ذر بالربذة وعليه حلة، وعلى غلامه حلة فسألته عن ذلك، فقال: إني سابيت رجلا فعيرته بأمه، فقال لي النبي ﷺ: «يا أبا ذر، أعيرته بأمه، إنك امرؤ فيك جاهلية. إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم»[٢].

وفى (صحيح الإمام مسلم) قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة» وقال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب»[٣].

---

(١) الحديث صحيح: أخرجه مسلم في كتاب «البر والصلة والآداب» باب: (نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا)، حديث رقم [٢٥٨٤] (٤/ ١٩٩٨) الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(٢) الحديث صحيح: أخرجه البخاري في كتاب «الإيمان» باب: (المعاصي من أمر الجاهلية) (١/ ١٥)، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

(٣) الحديث صحيح: أخرجه مسلم في كتاب «الجنائز» باب: (التشديد في النياحة)، حديث رقم [٩٣٤] (٢/ ٦٤٤).

**معنى التقوى:** التقوى هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

**صفات المتقين:** هناك صفات للمتقين من خلالها نستطيع التعرف عليهم بإذن الله.

**أولًا - القيام بركني الدين، وهما أركان الإسلام والإيمان:** وقد مر الحديث فيهما.

**ثانيًا - الوفاء بالوعد والعهد والصدق مع الله ورسوله ومع الناس:** كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

- ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل: ٩١].

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [المائدة: ١].

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

**ثالثًا - أن يحب لأخيه ما يحبه لنفسه وأن يكف الأذى عن المسلمين وجميع الخلق:** يقول رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، ولا يؤمن أحدكم حتى يأمن جاره شره»(١).

**رابعًا - العدل في الرضا والغضب:**

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

---

(١) الحديث صحيح: أخرجه ابن عساكر عن أسيد بن عبد الله بن زيد القسري عن أبيه عن جده، «كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال»: حديث رقم [٩٦]، علي بن حسام الدين المتقي الهندي، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٩٨٩م.

خامسا - كظم الغيظ والعفو والإحسان للمسيء:

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴾.

[٤: ١٣٣-١٣٦]

سادسًا - تعظيم شعائر الله:

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴾ [الحج: ٣٢].

سابعًا - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ثامنًا - أن لا تأخذه في الله لومة لائم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤].

تاسعًا - اجتناب الشهوات المحرمات والشبهات:

﴿ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴾ [النساء: ٣١].

**الوسائل المعينة على تحصيل التقوى:**

**أولًا - مراقبة الله ومهابته في السر والعلن والإخلاص له:**

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس: ٦١].

**ثانيًا - العلم بالقرآن والسنة وغيرهما تدبرًا واعتبارًا وعملًا:**

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٩-٣٠].

**ثالثًا - الالتزام بالإسلام عقيدة وعملًا:**

- ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران: ١٠١-١٠٣].

- ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥].

**رابعًا - صحبة الأخيار:**

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٥٥-٥٧].

خامسًا - محاسبة النفس وتأديبها على التقصير في حق الله وحق رسوله الكريم، وحق المؤمنين وحق غيرهم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾ [الحشر: ١٨-٢٠].

سادسًا - إطابة المطعم والمشرب والملبس والمنكح:

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾. [البقرة: ١٧٢]

- ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣١-٣٣].

- ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٦-٢٧].

- ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥-٧].

سابعًا - قصر الأمل والزهد في الدنيا:

- ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٢-٣].

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون: ٩-١١].

- ﴿ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [الحديد: ١٤].

**آثار التقوى على الفرد والمجتمع والأمة:**

**أولًا - آثار التقوى على الفرد:**

( أ ) محبة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٤]، [التوبة: ٧].

( ب) معونة الله إياه: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٤]، [التوبة: ٣٦]، [التوبة: ١٢٣].

(جـ ) تذكيره وحفظ الله له: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

( د ) إزالة الخوف والحزن من صدره: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس: ٦٢].

(هـ ) قبول أعماله الصالحات: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧].

( و ) تفريج كربه، وتنفيس همه، وتوسيع رزقه من حيث لا يتوقع: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل

لَهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

(ز) تيسير أموره، وقضاء مصالحه، وإتمام حاجاته: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾. [الطلاق: ٤]

(حـ) تكفير سيئاته وتعظيم أجره: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ [الطلاق: ٥].

(ط) دخول جنة عرضها السماوات والأرض: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣].

(ى) حسن العاقبة: ﴿ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٣٥]، ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [طه: ١٣٢]، ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

[القصص: ٨٣]

(ك) المنزلة العالية في الجنة: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [البقرة: ٢١٢].

**ثانيًا - آثار التقوى على المجتمع والأمة:**

(أ) الأمان والطمأنينة والسلام والسكينة: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٢].

ومنه الأثر الوارد في شأن سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال فيه عامل الروم لما دخل وسأل عن أمير المؤمنين، فأشاروا إليه تحت شجرة، قال: أريد قصر أمير المؤمنين، قالوا: هذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وكان يتوسد نعله تحت الشجرة؛ فقال: هذا أميركم؟! قالوا: نعم، هذا أميرنا، فقال: يا عمر حكمت فعدلت؛ فأمنت، فنمت[1].

(ب) رغادة العيش، وإنزال البركات: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٥-٦٦].

(جـ) المهابة والتثبيت والنصرة: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

وعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، أن النبي ﷺ، قال: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْمَغَانِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عامة»[2].

---

(١) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» باب: (منهجية عمر بن الخطاب العلمية) (٦٦/ ٩).

(٢) الحديث صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ٣٠٤) (١٤٣١٤)، وعَبْد بن حُمَيْد [١١٥٤] قال: حدَّثني مُحَمَّد بن

وأما قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ٤-٥].

**قال المفسرون:** «وإنما نادوا من وراء الحجرات لأنهم لم يعلموا في أي الحجر رسول الله ﷺ». وقد جوز أن يكونوا قد نادوه من وراء الحجرة التي كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فيها، ولكنها جمعت إجلالًا له عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وإنما أسند النداء إلى الكل لأنهم رضوا بذلك، أو أمروا به لأنه وجد فيما بينهم أكثرهم لا يعقلون؛ إذ لو كان لهم عقل لما تجاسروا على هذه المرتبة من سوء الأدب.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ قال الزجاج: أي لكان الصبر خيرا لهم، وفى وجه كونه خيرًا لهم قولان:

أحدهما - لكان خيرًا لهم فيما قدموا له من فداء ذراريهم، فلو صبروا خلى سبيلهم بغير فداء قاله مقاتل، والثاني - لكان أحسن لآدابهم في طاعة الله ورسوله ذكره الماوردي.

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ ﴾ أي: ولو تحقق صبرهم وانتظارهم حتى تخرج إليهم، وفى ﴿ إِلَيْهِمْ ﴾ إشعار بأنه لو خرج لا لأجلهم ينبغى أن يصبروا حتى يفاتحهم بالكلام أو يتوجه إليهم لكان أى الصبر المذكور خيرا لهم من الاستعجال لما فيه من رعاية حسن الأدب وتعظيم الرسول الكريم ﷺ الموجبين للثناء والثواب والإسعاف بالمسؤل؛ إذ روى أنهم وفدوا شافعين في أسارى بنى العنبر فأطلق النصف وفادى النصف.

---

أبي شَيْبَة، والدارِمِي [١٣٨٩] قال: أخبرنا يَحيى بن حَسَّان، والبُخَارِي [٣٣٥] قال: حدَّثنا مُحَمَّد بن سِنَان (ح) قال: وحدَّثني سَعِيد بن النَّضر، وفى [٤٣٨] و[٣١٢٢] قال: حدَّثنا مُحَمَّد بن سِنَان، ومسلم (٢/ ٦٣) [١٠٩٩].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: لمن تاب منهم.

والله غفور رحيم بليغ المغفرة والرحمة واسعهما، فلن يضيق ساحتهما عن هؤلاء إن تابوا وأصلحوا.

وبهذا يتبين لنا أنه يجب إعطاء الرسول الكريم ﷺ حقه من التعظيم والتكريم والتجلة والاحترام والتواضع والتوقير بما يليق بقدره الكريم، ومنزلته العظمى، ومكانته الشريفة، ودرجته السامية عند سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا يجوز محادثته كما يخاطب غيره، ولا يجوز رفع الصوت على صوته، ولا ينادى بالصورة الفجة الفارغة من الإجلال والمهابة والحشمة والاستحياء، عرفانا بحقه، وإيمانا بمكانته، وإذعانا لمنزلته، وتقديرا لمقامه، وثقة بأنه في غيابه وحضوره، وذهابه وخروجه، وحياته وموته، فهو نافع للمؤمنين في جميع الأوقات وعموم الأحوال ﷺ. فالقلوب المؤمنة تستشعر محبته ومهابته، لتنتفع بهديه، وتفوز بإرشاده، وتسعد باتباعه، وتنعم بتعاليمه؛ لتحظى بشفاعته ورضاه.

***ما يُستفاد من الآيات المباركات من آداب تربوية:***

- تربية أهل الإيمان على الحضور الذهنى بالإنصات بالحاسة السمعية، والاهتمام بالاستماع، والإسراع بالتنفيذ والمبادرة بالاستجابة؛ لأنه خير يؤمرون به، أو شر ينهون عنه. وبناء عليه فإنه لا يجوز التسويف، ولا الإهمال، ولا المخالفة ممن نودوا بالتكريم لأن ذلك مما يتنافى مع مقتضيات الإيمان وتعاليمه.
- تربية أهل الإيمان جميعا على اجتناب النواهى الربانية، وبذل الوسع في عدم تخطيها؛ لأن في تخطيها انحراف عن المنهج، يتبين منه قصور في الأدب وسوء التربية، وفى الانتهاء عنها احترام للمنهج ينم عن حسن أدب وكريم تربية.

❁ تربية المؤمنين عموما على حسن الأدب مع المصطفى الكريم ﷺ، والاطمئنان إلى أن الأدب معه كالأدب مع الله؛ لأننا تعلمنا الإيمان على يديه الكريمتين، وتلقنا التربية الخلقية منهما، وعليه فإنه لا يجوز مخالفته ولا معصيته لأنها من مخالفة الله ومعصيته.

❁ تربية أهل الإيمان على مراقبة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والتوقف عما نهى عنه فإنه دلالة على صدق الإيمان، فالإيمان عريان ولباسه التقوى.

❁ التربية النفسية على خلق الصبر، وتحمل معاناته لأن معناه حمل النفس على المكروه، حيث يعود الصابرون بالمنافع العظيمة، والمنح الجزيلة، ولعل هذا ما يؤخذ من تنكير كلمة ﴿ خَيْرًا ﴾ في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾.

❁ التربية الإيمانية على التخلية من مرض اليأس، وآلام القنوط، ومخازى الاستسلام.. مهما ارتكب الإنسان من خطايا.

والتحلية بصافى الرجاء، ولذيذ الأمل، ومعسول التوبة والأوبة، وجنى ثمار وشهد هذه التحلية يعود على المؤمن قاطفا الصحة النفسية، والقوة البدنية، والطاقة الروحية! فانتظار فرج الله عبادة بالمفهوم الإيجابى الذى علمه لنا الرسول الكريم ﷺ وهو العمل والأخذ بجميع الأسباب والتوكل على الله وحده وانتظار الثمار والنتائج بهذا المفهوم يكون عبادة لله، والثقة في غفرانه يقين وزيادة، و صدق الرجوع إليه ديانة وشهادة؛ لأنه كثير الغفران واسع الرحمة بلا حدود!

# الفصل الثالث
## تربية المؤمنين
## على التثبت في تناول الأخبار

يقول سبحانه وتقدس: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾ [السجدة: ٧]

**أسباب النزول:**

عَنْ يَزِيدَ بْنِ رُومَانَ قَالَ: «بَعَثَ رَسُولُ الله الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ إِلَى بَنِي الْـمُصْطَلِقِ سَاعِيًا، فَلَمَّا دَنَا مِنْهُمْ خَرَجُوا إِلَيْهِ يَتَلَقَّوْنَهُ؛ فَرَجَع عَنْهُمْ حَتَّى قَدِمَ عَلَى رَسُولِ الله فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، خَرَجَ إِلَيَّ بَنُو الْـمُصْطَلِقِ لِيَقْتُلُونِي وَمَنَعُونِي الصَّدَقَةَ؛ فَلَمَّا بَلَغَ بَنِي الْـمُصْطَلِقِ مَا قَالَ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ الله فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، بَلَغَنَا أَنَّ رَسُولَكَ أَتَانَا لِيُصْدِقَنَا، فَخَرَجْنَا إِلَيْهِ نَتَلَقَّاهُ لِنُكْرِمَهُ، فَبَلَغَنَا رُجُوعُهُ وَالَّذِي قال؛ فنزل القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦]»[(١)].

---

(١) «تفسير القرآن من الجامع» لابن وهب: (٣/ ٨٧) أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم المصري القرشي، المتوفى ١٩٧هـ، بتحقق: ميكلوش موراني، الناشر: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م، وأخرجه الطبري: (٢٦/ ١٢٣)، والإمام أحمد (٤ / ٢٧٩)، وعبد الرزاق في «التفسير» (٢/ ٢٣١). قال ابن كثير: (٤ / ٢٠٩-٢١٠): «ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط. حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق، وقد روي ذلك من طرق، ومن أحسنها ما رواه الإمام أحمد في «مسنده» من رواية ملك بني المصطلق وهو الحارث بن أبي ضرار، ثم ساق الحديث وساق روايات أخرى.

وقال الهيثمي (٧/ ١١١): «رواه الطبراني وفيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف»، ويراجع: «هامش تفسير البغوي» (٨/ ٣٣٩)، ويراجع: «أسباب النزول» ص [٢٨٧] وما بعدها، «الصحيح المسبور في التفسير بالمأثور» (٤/ ٣٦٦) وما بعدها، ويراجع: «مدارج السالكين» (١/ ٢٩٢) وما بعدها، ابن قيم الجوزية، بتحقيق عماد عامر، ط. دار الحديث.

جميع أهل التأويل أو عامتهم على أن الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، بعثه رسول الله ﷺ إلى بني المصطلق، وإلى قوم سواهم؛ لجباية الصدقات، وكان بينه وبين أُولَئِكَ القوم عداوة في الجاهلية، فخرجوا يتلقونه، فخافهم، فرجع، فقال: إن القوم قد منعوا الصدقات، فبعث رسول الله ﷺ إليهم بعد ذلك خالد بن الوليد لجباية الصدقات، فوجدهم يصلون ويعملون الطاعات، واجتمعوا وجمعوا له الصدقات وجبوها وسلموها إليه، فرجع إلى رسول الله ﷺ بها، فنزل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ لكن إن كان ما ذكروا فلم يكن في ذلك النبأ التثبت؛ لأن الآية نزلت بعد نبأ الرجل.

**فقه المعاني:**

في الآية أمر بالتثبت في نبأ الفاسق فيما يحدث من الأمور من بعد؛ فدل أن الآية نزلت لبيان الحكم في نبأ الفاسق ابتداء، والله أعلم.

ولأنه يحتمل أن يكون ذلك الرجل منافقًا ولم يأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالتثبت في خبر المنافق، ولم يشرع ذلك؛ لأن النفاق يكون في الضمير فلا يظهر ذلك؛ فأما الفسق فإنه يظهر فأمر لنا بالتثبت فيه؛ فدل أن الآية لم تنزل في ذلك الرجل؛ إذ لا يحتمل عن المنافق أن يزور على المسلمين مثل ما ذكر منه[1].

وقد اتفق المفسرون على أن الوليد ظن ذلك وليس في الروايات ما يقتضي أنه تعمد الكذب.

---

(١) تفسير الماتريدي «تأويلات أهل السنة» (٩/ ٣٢٦) محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي، المتوفى ٣٣٣هـ بتحقيق: د/ مجدي باسلوم، نشر: دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥ م.

قال الفخر: إن إطلاق لفظ الفاسق على الوليد شيء بعيد لأنه توهم وظن فأخطأ، والمخطئ لا يسمى فاسقًا[١].

قلت: ولو كان الوليد فاسقًا لما ترك النبي ﷺ تعنيفه واستتابته فإنه روى أنه لم يزد على قوله له: التبين من الله والعجلة من الشيطان[٢]؛ إذ كان تعجيل الوليد الرجوع عجلة. وقد كان خروج القوم للتعرض إلى الوليد بتلك الهيئة مثار ظنه حقا إذ لم يكن المعروف خروج القبائل لتلقي السعاة، وأنا أحسب أن عملهم كان حيلة من كبرائهم على انصراف الوليد عن الدخول في حيهم تعيرا منهم في نظر عامتهم من أن يدخل عدو لهم إلى ديارهم، ويتولى قبض صدقاتهم، فتعيرهم أعداؤهم بذلك، فيمتعض منهم دهماؤهم، ولذلك ذهبوا بصدقاتهم بأنفسهم في رواية، أو جاؤوا معتذرين قبل مجيء خالد بن الوليد إليهم في رواية أخرى. ويؤيد هذا ما جاء في بعض روايات هذا الخبر أن الوليد أعلم بخروج القوم إليه، وسمع بذلك، فلعل ذلك الإعلام موعز به إليه ليخاف فيرجع. وقد اتفق من ترجموا للوليد بن عقبة على أنه كان شجاعا جوادا، وكان ذا خلق ومروءة. واعلم أن جمهور أهل السنة على اعتبار أصحاب النبي الكريم ﷺ عدولًا، وأن كل من رأى النبي الكريم ﷺ وآمن به فهو من أصحابه.

وزاد بعضهم شرط (أن يروي عنه أو يلازمه)، ومال إليه المازري. قال في (أماليه) في أصول الفقه: «ولسنا نعني بأصحاب النبيء كل من رآه أو زاره لماما، إنما نريد أصحابه الذين لازموه وعززوه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه وأولئك هم المفلحون،

(١) «التفسير الكبير» (٢٨/ ١٠٨): الإمام الرازى، ط. المكتبة التوفيقية مصر بدون تاريخ.

(٢) عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «العجلة من الشيطان» [أخرجه الترمذي]، وقال: حسن، «سبيل الإسلام» باب: (العجلة من الشيطان) (٧/ ٢٠١). حدثنا أبو بكر حدثني يونس عن ليث عن يزيد عن ابن سنان عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «التأني من الله و العجلة من الشيطان و ما شيء أكثر معاذير من الله و ما من شيء أحب إلى الله من الحمد» قال حسين سليم أسد: إسناده ضعيف. «مسند أبى يعلى» باب: (سعيد بن سنان عن أنس بن مالك) (٧/ ٢٤٧).

شهد الله لهم بالفلاح»اهـ. وإنما تلقف هذه الأخبار الناقمون على عثمان إذ كان من عداد مناقمهم الباطلة أنه أولى الوليد بن عقبة إمارة الكوفة فحملوا الآية على غير وجهها، وألصقوا بالوليد وصف الفاسق، وحاشاه منه لتكون ولايته الإمارة باطلا. وعلى تسليم أن تكون الآية إشارة إلى فاسق معين فلماذا لا يحمل على إرادة الذي أعلم الوليد بأن القوم خرجوا له ليصدوه عن الوصول إلى ديارهم قصدا لإرجاعه؟

وفى بعض الروايات أن خالدًا وصل إلى ديار بني المصطلق. وفى بعضها أن بني المصطلق وردوا المدينة معتذرين، واتفقت الروايات على أن بين بني المصطلق وبين الوليد بن عقبة شحناء من عهد الجاهلية. وفى الرواية أنهم اعتذروا للتسلح بقصد إكرام ضيفهم. وفى (السيرة الحلبية) أنهم قالوا: خشينا أن يبادئنا بالذي كان بيننا من شحناء[1].

ثم في الآية دلالة قبول خبر الواحد إذا كان عدلا؛ لأنه لو لم يقبل خبره إذا كان عدلًا لم يكن لذكر الفسق فائدة سوى الشتم، والشتم سفه؛ فلا يجوز أن يوصف الله عَزَّوَجَلَّ به فدل ذكر الفسق على أن هذا الحكم وهو رد الشهادة مختص باسم الفسق، وأن العدل لا يشاركه فيه حتى لا يكون ذكر الفسق سفهًا لما تعلق به بيان حكم شرعي يختص بالفاسق، ولا يعرف ذلك دون ذكره، فأما متى كان الحكم عامًّا في الفاسق والعدل عند الانفراد، فكان ذكر الفاسق مع شتمه لا يليق بالحكمة؛ فدل ما ذكرنا.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ أي: تصيبوا قومًا بجهالة في الظاهر بسبب تهمة الفسق، فأمَّا في الحقيقة فإنه يجوز أن تصيب ذلك بخبر الواحد، لكن الأحكام وقبول

(١) التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» (٢٦/ ٢١٥) بتصرف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، المتوفى ١٣٩٣هـ، نشر: الدار التونسية للنشر - تونس، سنة النشر: ١٩٨٤هـ، الألباني «السلسلة الصحيحة» [٣٠٨٨].

الأخبار فيما بين الخلق لم توضع على الحقائق، وإنما وضعت على الظواهر، وكذلك قبول الشهادات، والحكم بها، وجميع الشرائع التي جعلت في الناس إنما هو على الظواهر من الأحوال والأمور، فأما على إصابة حقيقة ذلك فلا؛ إذ قد يجوز أن يحكم الحاكم ويقضي بقتل إنسان ويقطع يده بشهود عنده؛ لما ظهرت عنده عدالتهم، ولم يكن - في الحقيقة - كذلك، وعلى ذلك قول يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لبنيه: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]، لم يأمن عليهم بما ظهر له منهم زلة وجناية حين طلبوا منه إرساله ولده يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في الرعي؛ بل قال هنالك: ﴿إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٣]، إنما اعتل عليهم واحتج بأكل الذئب، ولم يتهمهم فيه بما لم يكن ظهر له منهم زلة وجناية، فلما ظهر ذلك منهم اتهمهم، وأخبر أنه لا يأمن عليهم بما ظهر له من زلتهم؛ فدل أن التهمة سبب الردّ، وأنه يجب التثبت بدفع الجهالة من حيث الظاهر، لا للحقيقة.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ أي: نادمين بما فعلوا على خلاف ما كان في الظاهر، ويندمون لما تركوا التثبت في الخبر.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات: ٧] أي: لأثمتم.

من الناس من احتج بهذه الآية على أن الإجماع ليس بحجة، وقالوا: لو كان لإجماعهم حجة، لكان لا يأثمون لو أطاعهم في كثير من الأمر؛ لأن الحق والصواب مما لا يوجب الإثم لصاحبه فيمن تبعه في ذلك الصواب، ولكن إن كان لا يوجب الثواب دل أنه ليس بحجة يجب اتباعه.

ولكن هذا فاسد؛ لأن الحجج والبراهين لم تكن انتهت يومئذ غايتها، ولا أتت على نهايتها، فالإجماع الذي هو إجماع حجة عندنا ويجب اتباعه والانقياد له هو إجماع من استوعب الحجج والبراهين، وأتى على عامتها، أو على الجميع، وكان الوقت وقت نزول الوحي، وإنما تستقر الأحكام بوفاة رسول الله ﷺ لما ينقطع الوحي؛ فيستدل على استيعاب الحجج ونزول جميع ما يحتاج الناس إليه من حيث الإيداع في النصوص، فمتى اجتمعوا على ذلك يكون حجة، ولأنه لا إجماع يتحقق دون رأي رسول الله ﷺ، وإذا وجد رأيه استغنى عن رأي الغير؛ لما كان ينطق عن الوحي، فإذا لم يكن وقت رسول الله ﷺ زمان انعقاد الإجماع حجة فبطل استدلالهم بالآية.

ثم قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أرسل إليكم ليزيل عنكم إشكالكم وشبهاتكم، فلا عذر لكم في الكفر واعتراض الشبه لكم بما تقدرون أن تسألوه ما أشكل عليكم واشتبه، فيخبركم بذلك فيزيل الشبه عنكم، والثاني يحتمل: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ يطلع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إياه على ما تضمرون في أنفسكم، وما تولدون من الأخبار التي لا أصل لها ولا أثر ما لو أظهر ذلك لافتضحتهم، وهو صلة ما ذكر من قوله: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾، ويحتمل: أي: فيكم رسول الله تسألونه ما أشكل عليكم، فيخبركم بالحق والأمر على الحقيقة كي لا تصيبوا قومًا بجهالة، والله أعلم.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ فإليه الرأي والتدبير في الأمور، ومن رأيه وتدبيره يجب أن يصدر، لا عن رأي أنفسكم وتدبيركم، وعلى ذلك يخرج قوله: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ [آل عمران: ١٠١]، على الوجوه التي ذكرنا[1].

(١) تفسير الماتريدي «تأويلات أهل السنة» (٩/ ٣٢٦) محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي، المتوفى ٣٣٣هـ

ثم بَيَّن عَزَّوَجَلَّ أن رأيهم سخيف بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم فقال: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أي: لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وحَرَجكم، كما قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١].

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧] أي: حببه إلى نفوسكم وحسنه في قلوبكم، فعن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «**الإسلام علانية، والإيمان في القلب**» قال: ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات، ثم يقول: «**التقوى هاهنا، التقوى هاهنا**»(١).

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧] أي: وبغض إليكم الكفر والفسوق، وهي: الذنوب الكبار. والعصيان وهي جميع المعاصي، وهذا تدريج لكمال النعمة.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧] أي: المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون، الذين قد آتاهم الله رشدهم.

**فعن ابن رفاعة الزرقي، عن أبيه قال:** لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون، قال رسول الله ﷺ: «**استووا حتى أثني على ربي عَزَّوَجَلَّ**» فصاروا خلفه صفوفًا، فقال: «**اللَّهُمَّ لك الحمد كله، اللَّهُمَّ لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مُضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا**

---

بتحقيق: د. مجدي باسلوم، نشر: دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

(١) **الحديث صحيح**: «المسند»: (٣/ ١٣٤)، قال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٥٢): «رجاله رجال الصحيح ما خلا علي بن مسعدة، وقد وثقه ابن حبان وأبو داود الطيالسي وأبو حاتم وابن معين وضعفه آخرون».

مباعد لما قربت، اللَّهُمَّ ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللَّهُمَّ، إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللَّهُمَّ إني أسألك النعيم يوم العَيْلَة، والأمن يوم الخوف، اللَّهُمَّ إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا ومن شر ما منعتنا، اللَّهُمَّ حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللَّهُمَّ، توفنا مسلمين وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين، اللَّهُمَّ، قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللَّهُمَّ قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب، إله الحق» [ورواه النسائي في (اليوم والليلة) عن زياد بن أيوب، عن مَرْوَان بن معاوية، عن عبد الواحد بن أيمن، عن عُبَيْد بن رِفاعة، عن أبيه، به][(١)].

وفي الحديث المرفوع: «من سرته حسنته، وساءته سيئته، فهو مؤمن»[(٢)].

ثم قال: ﴿ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ أي: هذا العطاء الذي منحكموه هو فضل منه عليكم ونعمة من لدنه، ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي: عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، حكيم في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره[(٣)].

والذي يستوقف النظر هنا هو تذكيرهم بأن الله هو الذي أراد بهم هذا الخير، وهو الذي خلص قلوبهم من ذلك الشر: الكفر والفسوق والعصيان. وهو الذي جعلهم بهذا راشدين فضلًا منه ونعمة. وأن ذلك كله كان عن علم منه وحكمة.. وفي تقرير هذه الحقيقة إيحاء لهم كذلك بالاستسلام لتوجيه الله وتدبيره، والاطمئنان إلى ما وراءه من

---

(١) الحديث صحيح: «المسند» (٣/ ٤٢٤)، والنسائي في «السنن الكبرى» برقم [١٠٤٤٥].

(٢) الحديث صحيح: رواه أحمد في «مسنده» (١/ ١٨)، والترمذي في «السنن» برقم [٢١٦٥] من حديث عمر ابن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه».

(٣) «تفسير القرآن العظيم»: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (٧/ ٣٧٠) [٧٠٠-٧٧٤هـ] بتحقيق: سامي بن محمد سلامة، نشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

خير عليهم وبركة، وترك الاقتراح والاستعجال والاندفاع فيما قد يظنونه خيرًا لهم؛ قبل أن يختار لهم الله. فالله يختار لهم الخير، ورسول الله ﷺ فيهم، يأخذ بيدهم إلى هذا الخير. وهذا هو التوجيه المقصود في التعقيب.

وإن الإنسان ليعجل، وهو لا يدري ما وراء خطوته. وإن الإنسان ليقترح لنفسه ولغيره، وهو لا يعرف ما الخير وما الشر فيما يقترح. ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ ولو استسلم لله، ودخل في السلم كافة، ورضي اختيار الله له، واطمأن إلى أن اختيار الله أفضل من اختياره، وأرحم له وأعود عليه بالخير. لاستراح وسكن. ولأمضى هذه الرحلة القصيرة على هذا الكوكب في طمأنينة ورضى.. ولكن هذا كذلك منة من الله وفضل يعطيه من يشاء[1].

وعليه فالواجب التأكد والتثبت من الأخبار الواردة والصادرة، وتحرى منتهى الدقة فيها، والاستيثاق الكامل من تضمنها للصدق الموافق للواقع، والمطابق له، درءًا للفتن، ودفعا للشرور، وإزالة للمخاطر، وتجنبا للعداوة، وطردا للهوى، ونجاة من عض الأيادى والندم قبل فوات الأوان.

### ما يُستفاد من الآيات المباركات من آداب تربوية:

- تربية الأفراد والجماعات على وجوب التدقيق في جميع الأخبار، والتثبت منها قبل إذاعتها وإعلانها.
- تربية الأفراد والجماعات على إخماد نيران الأخبار الكاذبة، والإشاعات المغرضة التي لا يوثق من مصادرها ولا من صحتها، ففيها تعريض العباد للتقتيل، والبلاد للتدمير، والمجتمعات للفتن، بإثارة القلاقل، وإحداث البلبلة، ونشر الفوضى.

---

(١) «في ظلال القرآن»: (٦/ ٣٣٤١) وما بعدها.

❁ تربية الأفراد والجماعات على حب الصدق واحترامه، والالتزام به، وتقدير الصادقين وتبنى مواقفهم.

❁ نشر الإشاعات الكاذبة سلاح يعمل على ذبح الأمة، وقتل روح الإبداع فيها.

❁ ضرورة إنجاز وتفعيل عمل ميثاق شرف للصحافة والإعلام، يلتزم بمقتضاه كل صحفى وإعلامى بالصدق في النشر لكل الأخبار في الصحف والقنوات الفضائية، وبموجبه يتم فصل كل صحفى أو صحفية وإعلامى أو إعلامية لم يلتزموا بموجب هذا الميثاق.

❁ الرحمة النبوية الشريفة بالأمة، ورعاية هذا الجانب في التأديب والتربية والتعليم والتثقيف، ففيه من جملة الآداب ما يستنزف الأقلام، والتربية على إحسان الثقة بالله وبرسوله الكريم، ووجوب التحلى بالصبر والتخلق بالثبات والرزانة والوقار.. والطمأنينة عند الشدائد، والتفكير قبل الإقدام على الفعل.

❁ المشقة كلها، وضروب الشدائد جلها، ومقاساة أنواع المحن بألوانها، في مخالفة أمر المصطفى والنكوص عن أمره.

❁ التذكير دائمًا بنعمة الإيمان للتخلق بمقتضاه، و التأدب بتعاليه والتربية على أسسه ومفاهيمه، وبيان أن إيمان المرء هو العاصم له من الفتن.

❁ التربية على شكر المنعم دائمًا على إسداء مواهبه ونعمه التي أعظمها نعمة التفضل بالإيمان، وتحبيبها للنفس، وكراهية الكفر والفسوق والعصيان، وفى الإشارة إليهم باسم الإشارة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ التي تفيد البعيد للإيذان ببعد منزلتهم، وعلو درجتهم.

❁ شهادة المولى عَزَّوَجَلَّ لأهل الإيمان بالرشد في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ بالألف واللام التعريفية، ومعناه أنهم هم الراشدون لا سواهم فيها من تعديل الله لهم، وتزكيتهم ورفع قيمتهم، وتحصيل سبل السعادات ما يطمئن نفوسهم، فيتربون على الثقة به آباء وأبناء، معلمين ومتعلمين، فيقبلوا على الزيادة من هذا الإيمان، والاستقامة عليه في جميع الأوقات والأماكن وشتى الأحوال.

❁ التفضل من الله على عباده المؤمنين بهذه المنح الإيمانية، أمر يستوجب المحافظة عليها بالاستقامة على منهجه والاقتداء بنبيه الكريم سيدنا محمد ﷺ.

❁ هناك سر في ختام الآية بهذين الاسمين الجليلين (عليم حكيم) بأنه لا يستحق هذه النعم السالفة الذكر إلا من كان أهلا لها حيث إن الحكمة تقتضي من العليم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالتفضل بوضع الأمور في نصابها ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

# الفصل الرابع
# تربية المؤمنين
# على إصلاح ذات بينهم

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩].

***أسباب النزول:***

**الأول** - عن أنس أنه قال: قيل للنبي ﷺ: لو أتيت عبد الله بن أُبي، قال: فانطلق النبي الكريم ﷺ إليه وركب حمارًا وانطلق معه المسلمون، فلما أتاه النبي ﷺ قال عبد الله المنافق: إليك عني، فوالله لقد آذاني نتن حمارك، فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحًا منك، فغضب لعبد الله بن أبي رجل من قومه فرد عليه وغضب لكل واحد منهما أصحابه فكان بينهما ضرب بالجريد والأيدي والنعال فنزلت هذه الآية فيهم(١).

**الثاني** - وقال السدي: كانت امرأة من الأنصار يقال: لها أم زيد تحت رجل من غيرهم فكان بينها وبين زوجها خصومة، فبلغ قومها فجاؤوا وجاء قومه، فاقتتلوا بالأيدي [وبالنعال]، فبلغ ذلك النبي ﷺ فجاء ليصلح بينهم فنزل القرآن في ذلك.

---

(١) الحديث صحيح: أخرجه البخاري في «الصلح» باب: (ما جاء في الإصلاح بين الناس) (٥/ ٢٩٧)، ومسلم في «الجهاد والسير»: باب: (في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين) برقم [١٧٩٩]، (٣/ ١٤٢٤)، «أسباب النزول» ص [٢٨٩] للواحدي.

**الثالث** - وعن قتادة أنه قال: ذكر لنا أنها نزلت في رجلين من الأنصار كانت بينهما خصومة، وكان أحدهما أكثر عشيرة من الآخر فأبى أن يحاكمه إلى النبي ﷺ فتدافعا وتقاتلا بالأيدي والنعال فنزلت الآية فيهما[١].

وسواء أكان نزول هذه الآية بسبب حادث معين كما ذكرت الروايات، أم كان تشريعًا لتلافى مثل هذه الحالة، فهو يمثل قاعدة عامة محكمة لصيانة الجماعة الإسلامية من التفكك والتفرق، ثم لإقرار الحق والعدل والصلاح، والارتكان في هذا كله إلى تقوى الله ورجاء رحمته بإقرار العدل والإصلاح[٢].

**فقه المعاني:**

جاء في قِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ، وَالْمُرْتَدِّين[٣] للشَّافِعِي[٤]: قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ

---

(١) «الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه»: أبو محمد مكي ابن أبي طالب حَمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني، ثم الأندلسي القرطبي المالكي، المتوفى ٤٣٧هـ بتحقيق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة، بإشراف أد/ الشاهد البوشيخ، نشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

(٢) «في ظلال القرآن»: (٦/ ٣٣٤٣) للإمام الشهيد سيد قطب.

(٣) قَالَ في «الأُم» جـ ١، ص [٢٢٨-٢٢٩]: «اخْتلف أَصْحَابنَا في الْمُرْتَد: فَقَالَ مِنْهُم قَائِل: من ولد على الْفطْرَة، ثمَّ ارْتَدَّ إِلَى دين-: يظهره، أَولا يظهره-: لم يستتب، وَقتل. وَقَالَ بَعضهم: سَوَاء من ولد على الْفطْرَة، وَمن أسلم: لم يُولد عَلَيْهَا فَأَيهمَا ارْتَدَّ-: فَكَانَت ردته إِلَى يَهُودِيَّة، أَو نَصْرَانِيَّة، أَو دين يظهره.-: استتيب فَإِن تَابَ: قبل مِنْهُ وَإِن لم يتب: قتل. وَإِن كَانَت ردته إِلَى دين لَا يظهره-: مثل الزندقة، وَمَا أشبهها-: قتل، وَلم ينظر إِلَى تَوْبَته. وَقَالَ بَعضهم: سَوَاء من ولد على الْفطْرَة، وَمن لم يُولد عَلَيْهَا: إِذا أسلم فَأَيهمَا ارْتَدَّ: استتيب فَإِن تَابَ: قبل مِنْهُ وَإِن لم يتب: قتل. وَبِهَذَا أَقُول». ثمَّ اسْتدلَّ على ذَلِك فَرَاجعه: فَإِنَّهُ مُفِيد في بعض الأبحاث الْآتِيَة. وراجع كَلَامه قبل ذَلِك وَبعده، ص (٢٢٧ و٢٣١- ٢٣٤). وراجع: «الْأُم»: جـ٦، ص (١٤٨- ١٤٩ و١٥٥- ١٥٦)، ثمَّ رَاجع كَلَامه عَن أهل الرِّدَّة بعد النَّبِي في «الْأُم»: جـ ٤، ص (١٣٤- ١٣٥)، و«المختصر»: جـ ٥، ص (١٥٧- ١٥٨)، وراجع: «السّنَن الْكُبْرَى» جـ ٨، ص (١٧٥- ١٧٨).

(٤) وأيضًا في «الأُم»: جـ ٤، ص (١٣٣- ١٣٤).

مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾. ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾[1].

فَذَكَرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اقْتِتَالَ الطَّائِفَتَيْنِ وَالطَّائِفَتَانِ الْمُمْتَنِعَتَانِ.

**الْجَمَاعَتَانِ**: كُلُّ وَاحِدَةٍ تَمْتَنِعُ وَسَمَّاهُمْ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: الْمُؤْمِنِينَ وَأَمَرَ بِالْإِصْلَاحِ بَيْنَهُمْ[2].

فَحَقَّ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ: دُعَاءُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا افْتَرَقُوا، وَأَرَادُوا الْقِتَالَ أَنْ لَا يُقَاتِلُوا، حَتَّى يُدْعَوْا إِلَى الصُّلْحِ. قَالَ: وَأَمَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: بِقِتَالِ الْبَاغِيَةِ: وَهِيَ مُسَمَّاةٌ بِاسْمِ: الْإِيمَانِ[3] حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ الله [4]فَإِذَا فَاءَتْ، لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ قِتَالُهُمَا؛ لِأَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ إِنَّمَا أَذِنَ فِي قِتَالِهَا: فِي مُدَّةِ الِامْتِنَاعِ -: بِالْبَغْيِ- إِلَى أَنْ تَفِيءَ.

**وَالْفَيْءُ**: الرَّجْعَةُ عَنْ الْقِتَالِ: بِالْهَزِيمَةِ، والتَّوْبَةِ وَغَيْرِهَا وَأَيُّ حَالٍ تَرَكَ بِهَا الْقِتَالَ: فَقَدْ فَاءَ [5] وَالْفَيْءُ -: بِالرُّجُوعِ عَنْ الْقِتَالِ -: الرُّجُوعُ عَنْ مَعْصِيَةِ الله إِلَى طَاعَتِهِ، وَالْكَفُّ

---

(١) يراجع: «السّنَن الْكُبْرَى» جـ٨، ص (١٧٢ و١٩٢) مَا روى فِي سَبَب نزُول ذَلِك عَن أنس وَمَا روى عَن عَائِشَة وَابْن عمر.

(٢) «السّنَن الْكُبْرَى» (جـ٨ ص ١٧٢- و١٧٤)، و«صحيح البُخَارِيّ بِهَامِش الْفَتْح» (جـ١ ص ٦٥).

(٣) حكى الشَّافِعِي فِي «الْقَدِيم»: أَن قوما أَنْكَرُوا قتال أهل الْبَغي وَزَعَمُوا: أنهم أهل الْكفْر، وَلَيْسوا بِأَهْل الْإِسْلَام، ثمَّ ذكر دليلهم، ورد عَلَيْهِم. فراجع كَلَامه، وتعقيب الْبَيْهَقِيّ عَلَيْهِ: فِي «السّنَن الْكُبْرَى» (جـ٨ ص ١٨٨). فَإِنَّهُ جيد وَلَوْلَا طوله لنقلناه.

(٤) قَالَ الشَّافِعِي فِي «الْقَدِيم» (كَمَا فِي «السّنَن الْكُبْرَى» ص ١٨٧): «وَرغب رَسُول الله ﷺ فِي قتال أهل الْبَغي». وَانْظُر فِي السّنَن الْكُبْرَى مَا ذكره من السّنة.

(٥) قَالَ فِي «الْمُخْتَصر» (جـ٥ ص ١٥٩) - بعد أَن ذكر نَحْو ذَلِك-: «وَحرم قِتَالهمْ: لِأَنَّهُ أَمر أَن يُقَاتل وَإِنَّمَا يُقَاتل من يُقَاتل. فاذا لم يُقَاتل: حرم بِالْإِسْلَامِ أَن يُقَاتل. فَأَما من لم يُقَاتل فَإِنَّمَا يُقَال: اقْتُلُوهُ لَا: قَاتلُوهُ.». وَقد

عَمَّا حَرَّمَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ. وَقَالَ أَبُو ذُؤَيْبٍ الْهُذَلِيُّ- يُعَيِّرُ نَفَرًا مِنْ قَوْمِهِ: انْهَزَمُوا عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِهِ، فِي وَقْعَةٍ، فَقُتِلَ لَا يَنْسَأُ اللهُ مِنَّا، مَعْشَرًا: شَهِدُوا يَوْمَ الْأُمَيْلِحِ، لَا غَابُوا[1]. وَلَا جَرَحُوا فَلَمْ يَشْعُرْ بِهِمْ أَحَدٌ ثُمَّ اسْتَفَاءُوا، فَقَالُوا: حَبَّذَا الْوَضَحُ»[2].

**قَالَ الشَّافِعِيُّ:** فَأَمَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: إن فاؤا.-: أَنْ يُصْلِحَ بَيْنَهُمْ بِالْعَدْلِ وَلَمْ يَذْكُرْ تَبَاعَةً: فِي دَمٍ، وَلَا مَالٍ. وَإِنَّمَا ذَكَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ الصُّلْحَ آخِرًا كَمَا ذَكَرَ الْإِصْلَاحَ بَيْنَهُمْ أَوَّلًا: قَبْلَ الْإِذْنِ بِقِتَالِهِمْ فَأَشْبَهَ هَذَا والله أَعْلَمُ أَنْ تَكُونَ التَّبَاعَاتُ فِي الْجِرَاحِ وَالدِّمَاءِ، وَمَا فَاتَ - مِنْ الْأَمْوَالِ.- سَاقِطَةً بَيْنَهُمْ[3] وَقَدْ يَحْتَمِلُ قَوْلُ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾ أَنْ يُصْلِحَ بَيْنَهُمْ: بِالْحُكْمِ-: إذَا كَانُوا قَدْ فَعَلُوا مَا فِيهِ حُكْمٌ.-: فَيُعْطَى بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ، مَا وَجَبَ لَهُ؛ لِقَوْلِ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ وَالْعَدْلُ: أَخْذُ الْحَقِّ لِبَعْضِ النَّاسِ مِنْ بَعْضٍ.. ثُمَّ اخْتَارَ الْأَوَّلَ، وَذَكَرَ[4] حُجَّتَهُ[5].

---

ذكر نحوه في الام (جـ ٤ ص ١٤٣). فَراجعه، وراجع كَلَامه عَن الْخَوَارِج وَمن في حكمهم، وَالْحَال الَّتِي لَا يحل فِيهَا دِمَاء أهل الْبَغي-: في الْأُم (ج ٤ ص ١٣٦- ١٣٩، و«المختصر» (جـ ٥ ص ١٥٩- ١٦٢).

(١) قَالَ في «اللِّسَان»: «يَقُول: لم يغيبوا-: فنكفى أَن يؤسروا أَو يقتلُوا.-وَلَا جرحوا، أَي: وَلَا قَاتلُوا إِذْ كَانُوا مَعنا.». وفى الأَصْل «عابوا». وَهُوَ تَصْحِيف.

(٢) قَالَ في «اللِّسَان»: «أَي قَالُوا: اللَّبن أحب إِلَيْنَا من الْقود، فَأخْبر: أَنهم آثروا إبل الدِّيَة وَأَلْبَانهَا، على دم قَاتل صَاحبهمْ.». وفى الأَصْل: «حبذا الوضح» وَهُوَ تَحْرِيف مخل بِالْوَزْنِ.

(٣) يرَاجع: «السّنَن الْكُبْرَى» (جـ ٨ ص ١٧٤- ١٧٥).

(٤) الْأُم (ص ١٣٤). ثمَّ رَاجع الْخلاف فِيهِ وفى قتال أهل الْبَغي المنهزمين: في الْأُم (جـ ٤ ص ١٤٢- ١٤٤)، والمختصر (جـ ٥ ص ١٦٢- ١٦٥).

(٥) «أحكام القرآن للشافعي» - جمع البيهقي: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)كتب هوامشه: عبد الغني عبد الخالق قدم له: محمد زاهد الكوثري الناشر: مكتبة الخانجي - القاهرة الطبعة: الثانية، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م، ويراجع: تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن: ٤/ ١٦٦: محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الحسني الحسيني الإيجي الشافعيّ (المتوفى: ٩٠٥هـ) دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤م،

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾ أي تقاتلوا، وكان الظاهر اقتتلتا بضمير التثنية كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾ فأصلحوا بينهما أي بالنصح وإزالة الشبهة إن كانت، والدعاء إلى حكم الله عَزَّوَجَلَّ. والعدول إلى ضمير الجمع لرعاية المعنى، فإن كل طائفة من الطائفتين جماعة، فقد روعي في الطائفتين معناهما أولًا، ولفظهما ثانيًا، على عكس المشهور في الاستعمال، والنكتة في ذلك ما قيل: إنهم أولًا في حال القتال مختلطون فلذا جمع أولًا ضميرهم، وفى حال الصلح متميزون متفارقون، فلذا ثني الضمير، وقرأ ابن أبي عبلة (اقتتلتا) بضمير التثنية والتأنيث كما هو الظاهر وقرأ زيد بن علي وعبيد بن عمير (اقتتلا) بالتثنية والتذكير باعتبار أن الطائفتين فريقان، ﴿ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا ﴾ تعدت وطلبت العلو بغير الحق على الأخرى، ولم تتأثر بالنصيحة، ﴿ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ ﴾ أي ترجع إلى أمر الله أي إلى حكمه أو إلى ما أمر سبحانه به.

وقرأ الزهري (حتى تفي) بغير همز وفتح الياء وهو شاذ كما قالوا في مضارع جاء (يجي) بغير همز، فإذا أدخلوا الناصب فتحوا الياء أجروه مجرى يفى مضارع وفى شذوذًا.

وفى تعليق القتال بالموصول (التي) للإشارة إلى علية ما في حيز الصلة أي فقاتلوها لبغيها، ﴿ فَإِن فَآءَتْ ﴾ أي رجعت إلى أمره عَزَّوَجَلَّ وأقلعت عن القتال حذرا من قتالكم، فأصلحوا بينهما بالعدل، بفصل ما بينهما على حكم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا تكتفوا بمجرد متاركتهما، عسى أن يكون بينهما قتال في وقت آخر.

---

«أوضح التفاسير»: ص٦٣٥: محمد محمد عبد اللطيف بن الخطيب (المتوفى: ١٤٠٢هـ): نشر: المطبعة المصرية ومكتبتها الطبعة: السادسة، رمضان ١٣٨٣ هـ - فبراير ١٩٦٤م.

وتقييد الإصلاح هنا بالعدل لأنه مظنة الحيف لوقوعه بعد المقاتلة، وقد أكد ذلك بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَأَقْسِطُوٓاْ ﴾ أي: اعدلوا في كل ما تأتون وما تذرون ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ فيجازيهم أحسن الجزاء[١].

**وفى الكشاف في الإصلاح بالعدل والقسط تفاصيل:**

فإن كانت الباغية من قلة العدد بحيث لا منعة لها ضمنت بعد الفيئة ما جنت، وإن كانت كثيرة ذات منعة وشوكة، لم تضمن إلا عند محمد بن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإنه كان يفتي بأن الضمان يلزمها إذا فاءت، وأما قبل التجمع والتجند أو حين تتفرق عند وضع الحرب أوزارها، فما جنته ضمنته عند الجميع، فمحمل الإصلاح بالعدل على مذهب محمد واضح منطبق على لفظ التنزيل، وعلى قول غيره وجهه أن يحمل على كون الفئة قليلة العدد، والذين ذكروا من أن الغرض إماتة الضغائن وسل الأحقاد دون ضمان الجنايات ليس بحسن الطباق للمأمور به من أعمال العدل ومراعاة القسط[٢].

**قال في (الكشف):** «لأن ما ذكروه من إماتة الأضغان داخل في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ فَإِن فَآءَتْ ﴾ لأنه من ضرورات التوبة، فأعمال العدل والقسط إنما يكون في تدارك الفرطات، ثم قال: والأولى على قول الجمهور أن يقال: الإصلاح بالعدل أنه لا يضمن من الطرفين، فإن الباغي معصوم الدم والمال مثل العادل، لاسيما وقد تاب، فكما لا

---

(١) «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني»: المجلد التاسع: الجزء الثالث عشر، ص٣٠١ بتصرف: محمود الآلوسي أبو الفضل، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) «الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل»: (٤/ ٣٥٦)، «الزمخشري» ط. دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، الثالثة ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣م، «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني»: المجلد التاسع: الجزء الثالث عشر، ص ٣٠٢.

يضمن العادل المتلف لا يضمنه الباغي هذا مقتضى العدل لا تخصيص الضمان بطرف دون آخر[١].

والحق عندى أن الفئة الباغية مع صحة احتفاظها بلقب الإسلام إلا أنها يجب عليها أن تضمن ما أتلفته، وذلك جزاء ما قامت به من بغى وعدوان، وهذا إنما يكون بمثابة التأديب لها، والارتداع عن فعلها.

وأما كون الفئة العادلة لا تقوم بضمان شيء فلكونها تدفع عدوانا ولم تبادىء ببغى، وهذه هي روح العدل المذكور في الآية المباركة، ومع كون العدل ذكر مكررا بصيغة يفهم منها المبالغة فهو للتشديد على وجوب تحرى منتهى الدقة والإنصاف والقسطاس المستقيم في الحكم مع الفئة الباغية، فلا يجوز الجور عليهم أو ظلمهم بحجة أنهم بغاة، فإنه لا يجوز أن ننسى أنهم مسلمون، وهذا هو منتهى القسط وروحه.

**يقول أبو حيان:** الأمر في ﴿فَأَصْلِحُوا﴾ و﴿فَقَٰتِلُوا﴾ لمن له الأمر من الملوك وولاتهم[٢].

**ويقول الآلوسي:** روي ذلك عن ابن عباس وهو للوجوب فيجب الإصلاح، ويجب قتال الباغية ما قاتلت، وإذا كفت وقبضت عن الحرب تركت، وجاء في حديث رواه الحاكم وغيره حكمها إذا تولت قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يا ابن أم عبد هل تدري كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمة؟ قال: الله تعالى ورسوله أعلم، قال: لا يجهز على جريحها ولا يقتل أسيرها ولا يطلب هاربها، ولا يقسم فيؤها»[٣].

---

(١) «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى»: المجلد التاسع: الجزء الثالث عشر، ص ٣٠٢.

(٢) «البحر المحيط»: (٨ / ١١١)، أبو حيان الأندلسى، ط. دار الكتب العلمية لبنان.

(٣) **الحديث ضعيف:** أخرجه الحاكم في «المستدرك»، والبزار والحارث وابن عدى من رواية كوثر بن حكيم النافع عن نافع عن ابن عمر، وكوثر متروك، قال فيه أحمد: أحاديثه أباطيل، يراجع: «الكافى الشافى في تخريج أحاديث الكشاف»: (٤/ ٣٥٥) لابن حجر، بهامش «تفسير الكشاف»، ط. دار الكتب العلمية، يراجع: «أحكام القرآن»: (٣/ ٤٠٠٤).

وذكروا أن الفئتين من المسلمين إذا اقتتلا على سبيل البغي منهما جميعا، فالواجب أن يمشي بينهما بما يصلح ذات البين، ويثمر المكافة، والموادعة، فإن لم يتحاجزا ولم يصطلحا، وأقاما على البغي صيرا إلى مقاتلتهما، وإنهما إذا التحم بينهما القتال لشبهة دخلت عليهما، وكلتاهما عند أنفسهما محقة، فالواجب إزالة الشبهة بالحجج النيرة والبراهين القاطعة، وإطلاعهما على مراشد الحق، فإن ركبتا متن اللجاج، ولم تعملا على شاكلة ما هديتا إليه ونصحتا به من اتباع الحق بعد وضوحه، فقد لحقتا باللتين اقتتلا على سبيل البغي منهما جميعًا، والتصدي لإزالة الشبهة في[1] الفئة الباغية إن كانت لازم قبل المقاتلة.

وقيل: الخطاب لمن يتأتى منه الإصلاح ومقاتلة الباغي، فمتى تحقق البغي من طائفة كان حكم إعانة المبغي عليه حكم الجهاد، فقد أخرج الحاكم[2] وصححه والبيهقي عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «ما وجدت في نفسي من شيء ما وجدت في نفسي من هذه الآية يعني وإن طائفتان الخ أني لم أقاتل هذه الفئة الباغية كما أمرني الله تعالى»[3] يعني بها معاوية ومن معه الباغين على عليّ - كرم الله تعالى وجهه -.

وصرح الحنابلة بأن قتال الباغين أفضل من الجهاد احتجاجا بأن عليًّا - كرم الله تعالى وجهه - اشتغل في زمان خلافته لقتالهم دون الجهاد.

---

(١) «الجصاص»: نشر دار الكتاب العربي..

(٢) الحديث صحيح: «المستدرك على الصحيحين»: (٢/ ٢٠٥): محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري: وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» تعليق الذهبي في «التلخيص على شرط البخاري ومسلم»، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١ - ١٩٩٠، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.

(٣) «السنن الكبرى»: (٨/ ٢٩٨): أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، المتوفى ٤٥٨هـ، بتحقيق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م.

والحق أن ذلك ليس عل إطلاقه، بل إذا خشي من ترك قتالهم مفسدة عظيمة دفعها أعظم من مصلحة الجهاد.

وظاهر الآية أن الباغي مؤمن لجعل الطائفتين الباغية والمبغي عليها من المؤمنين. نعم الباغي على الإمام ولو جائرا فاسق مرتكب لكبيرة إن كان بغيه بلا تأويل أو بتأويل قطعي البطلان.

والمعتزلة يقولون في مثله إنه فاسق مخلد في النار إن مات بلا توبة، والخوارج يقولون: إنه كافر، والإمامية أكفروا الباغي على عليّ - كرم الله تعالى وجهه - المقاتل له.

واحتجوا بما روي من قوله ﷺ له: «**حربك حربي**»[(١)]، وفيه بحث.

وقرأ ابن مسعود حتى (يفيئوا) إلى أمر الله، فإن فاؤا فخذوا بينهم بالقسط[(٢)].

والقرآن قد واجه - أو هو يفترض - إمكان وقوع القتال بين طائفتين من المؤمنين، ويستبقي لكلتا الطائفتين وصف الإيمان مع اقتتالهما، ومع احتمال أن إحداهما قد تكون باغية على الأخرى، بل مع احتمال أن تكون كلتاهما باغية في جانب من الجوانب.

وهو يكلف الذين آمنوا - من غير الطائفتين المتقاتلتين طبعًا - أن يقوموا بالإصلاح بين المتقاتلين، فإن بغت إحداهما فلم تقبل الرجوع إلى الحق - ومثله أن تبغيا معًا برفض الصلح أو رفض قبول حكم الله في المسائل المتنازع عليها - فعلى المؤمنين أن يقاتلوا البغاة إذن، وأن يظلوا يقاتلونهم حتى يرجعوا إلى أمر الله، وأمر الله هو وضع الخصومة

---

(١) **حربك حربي**: لم يذكر له إسناد فلا يقوم به حجة فكيف وهو كذب موضوع باتفاق أهل العلم بالحديث، يراجع: «منهاج السنة النبوية»: (٨/ ٥١١): أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، نشر: مؤسسة قرطبة، الطبعة الأولى ١٤٠٦.

(٢) «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني»: المجلد التاسع: الجزء الثالث عشر، ص ٣٠٢ وما بعدها.

بين المؤمنين، وقبول حكم الله فيما اختلفوا فيه، وأدى إلى الخصام والقتال. فإذا تم قبول البغاة لحكم الله، قام المؤمنون بالإصلاح القائم على العدل الدقيق طاعة لله وطلبًا لرضاه.. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ ويعقب على هذه الدعوة وهذا الحكم باستجاشة قلوب الذين آمنوا واستحياء الرابطة الوثيقة بينهم، والتي جمعتهم بعد تفرق، وألفت بينهم بعد خصام؛ وتذكيرهم بتقوى الله، والتلويح لهم برحمته التي تنال بتقواه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

ومما يترتب على هذه الأخوة أن يكون الحب والسلام والتعاون والوحدة هي الأصل في الجماعة المسلمة، وأن يكون الخلاف أو القتال هو الاستثناء الذي يجب أن يرد إلى الأصل فور وقوعه؛ وأن يستباح في سبيل تقريره قتال المؤمنين الآخرين للبغاة من إخوانهم ليردوهم إلى الصف، وليزيلوا هذا الخروج على الأصل والقاعدة، وهو إجراء صارم وحازم كذلك.

ومن مقتضيات هذه القاعدة كذلك ألا يجهز على جريح في معارك التحكيم هذه، وألا يقتل أسير، وألا يتعقب مدبر ترك المعركة، وألقى السلاح، ولا تؤخذ أموال البغاة غنيمة؛ لأن الغرض من قتالهم ليس هو القضاء عليهم، وإنما هو ردهم إلى الصف، وضمهم إلى لواء الأخوة الإسلامية.

والأصل في نظام الأمة المسلمة أن يكون للمسلمين في أنحاء الأرض إمامة واحدة، وأنه إذا بويع لإمام، وجب قتل الثاني، واعتباره ومن معه فئة باغية يقاتلها المؤمنون مع الإمام[1].

---

(١) «في ظلال القرآن» (٦/ ٣٣٤٣) وما بعدها: للإمام الشهيد سيد قطب.

وعلى هذا الأصل قام الإمام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقتال البغاة في وقعة الجمل[١] وفي وقعة صفين[٢]؛ وقام معه بقتالهم أجلاء الصحابة رضوان الله عليهم. وقد تخلف بعضهم عن المعركة منهم سعد ومحمد بن مسلمة وأسامة بن زيد وابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إما لأنهم لم يتبينوا وجه الحق في الموقف في حينه فاعتبروها فتنة. وإما لأنهم كما يقول الإمام الجصاص: ربما رأوا الإمام مكتفيًا بمن معه مستغنيًا عنهم بأصحابه فاستجازوا القعود عنه لذلك[٣].

**يقول الإمام الشهيد سيد قطب:** والاحتمال الأول أرجح، تدل عليه بعض أقوالهم المروية. كما يدل عليه ما روي عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ندمه فيما بعد على أنه لم يقاتل مع الإمام.

ومع قيام هذا الأصل فإن النص القرآني يمكن إعماله في جميع الحالات - بما في ذلك الحالات الاستثنائية التي يقوم فيها إمامان أو أكثر في أقطار متفرقة متباعدة بين بلاد المسلمين، وهي حالة ضرورة واستثناء من القاعدة.

فواجب المسلمين أن يحاربوا البغاة مع الإمام الواحد، إذا خرج هؤلاء البغاة عليه، أو إذا بغت طائفة على طائفة في إمامته دون خروج عليه. وواجب المسلمين كذلك أن يقاتلوا البغاة إذا تمثلوا في إحدى الإمامات المتعددة في حالات التعدد الاستثنائية، بتجمعهم ضد الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله. وهكذا يعمل النص القرآني في جميع

---

(١) وقعت يوم الخميس لعشر خلون من جمادة الآخرة في السنة السادسة والثلاثين بين علي وصحبه، وبين طلحة والزبير وعائشة ومن معهم. يراجع: «الخلفاء الراشدون»: ص [٤٠٠] للأستاذ عبد الوهاب النجار، ط. دار الفكر.

(٢) وقعت يوم الأربعاء أول شهر صفر سنة سبع وثلاثين، وكانت بين علي ومعاوية وأجنادهما. المرجع السابق، ص٤٢٣.

(٣) يراجع: «أحكام القرآن»: (٣ / ٤٠٠، ٤٠١)، «الجصاص»، نشر: دار الكتاب العربي.

الظروف والأحوال. وواضح أن هذا النظام، نظام التحكيم وقتال الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله، نظام له السبق من حيث الزمن في كل محاولات البشرية في هذا الطريق، وله الكمال والبراءة من العيب والنقص الواضحين في كل محاولات البشرية البائسة القاصرة التي حاولتها في كل تجاربها الكسيحة! وله بعد هذا وذاك صفة النظافة والأمانة والعدل المطلق؛ لأن الاحتكام فيه إلى أمر الله الذي لا يشوبه غرض ولا هوى، ولا يتعلق به نقص أو قصور، ولكن البشرية البائسة تطلع وتعرج، وتكبو وتتعثر، وأمامها الطريق الواضح الممهد المستقيم![1].

والآيتان فيهما أدب راق، هو أدب في حق الطوائف المختلفة، والمتشاحنة، والمتنازعة، والمتفرقة، والمتقاتلة، والمتخاصمة، فالواجب هو لم شعثهم، والتأليف بين قلوبهم، وإزاحة البغضاء من صدورهم، وإصلاح ذات بينهم، وإزالة الخلافات، ومحو العداوات، من محيطهم، وإضماد جراحاتهم، ومن ثم فإنه لا يجوز الدخول بينهم بالإفساد، ولا ببث روح القطيعة، أو الفرقة لأنه من شأنه تمزيق الصف، وتشتيت الوحدة، وتفريق الكلمة، ومحو الهوية، وإضاعة الهيبة.

***ما يُستفاد من الآيتين المباركتين من آداب تربوية:***

❁ تربية المؤمنين على وجوب الصلح بين الطوائف المتنازعة منهم.

❁ تربية المؤمنين على وجوب الإسراع بالصلح، فإن من شأنه إيقاف نيران العداوة بين المتخاصمين، وإخماد جذوتها وإطفاء لهيبها. وهذا ما يُستفاد من إيثار لفظ الفاء في ﴿فَأَصْلِحُوا﴾، والتي هي للعطف والمفيدة لمعنى الإسراع والترتيب والتعقيب عكس (الواو) التي تفيد مطلق الجمع، و( ثم ) التي تفيد التراخي.

(١) «في ظلال القرآن»: (٦ / ٣٣٤٣) وما بعدها: للإمام الشهيد سيد قطب.

❁ جاءت (وإن طائفتان) التي تفيد الشك لبيان أن التنازع بين المؤمنين من الأمور القليلة والمظنونة، والتى يجب أن تكون كذلك، ضمن الواقع؛ إذ أن القاعدة العريضة هي التصالح الدائم، والتسامح المستمر، والتآخى المتواصل، والوئام المتجدد، والمحبة الخالصة، والتى يجب أن تكون هي عنوان مجتمعات المؤمنين.

❁ التربية على نبذ الفرقة، وبث روح الوحدة وأنها من لوازم الإيمان.

❁ قتال الفئة الباغية بحيث يجب أن يعلم الأفراد أن له غاية وحدا، وليس على طول الخط حتى تفىء الباغية إلى أمر الله.

❁ لما كان التصالح الثانى بعد التقاتل يختلف عن التصالح الأول الذى هو بدون قتال، نبه على وجوب العدل فيه، وأكده بذكر القسطاس، حتى لا يحيف أحد على أحد، ولا يجور فريق على آخر بعد القتال، فالجميع مؤمنون كما وصفهم القرآن.

❁ التربية على تذكر أخوة الإيمان دائمًا من شأنه إزاحة الخلافات، ونسف القلاقل، وتنحية المعوقات من الدرب، وأن التنكر لهذا العنصر، بات أس الأوجاع وبيت الداءات في رأس الأمة في كل زمان ومكان، وأن أعداء الأمة ما وجدوا بغية لهم أكثر من إشعال نيران الفرقة، وبث روح العداء، ونشر الخلافات بين أبنائها.

مما لزم بموجبه التنويه بضرورة تأديب الأفراد والجماعات على فهم مقتضيات واجبات الأخوة الإيمانية ووجوب معايشتها، وبيان أن تربية الإيمان والتقوى عنصران من عناصر رحمة الله التي ما أحوجنا وما أحوج البشرية جمعاء إليها، حتى تثمر المنافع، وتلتحم الأواصر، وتتأكد الصلات، وتترابط. الوشائج، فتثمر النفع العام بين إخوة الجسد الإيماني الواحد. فعن النعمان بن بشير قال: قال رسول ﷺ: «**مثل المؤمنين في**

توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[١].

وعن أبي موسى قال: قال رسول ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»[٢].

وحديث: «مثل الأخوين إذا التقيا مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى، وما التقى مؤمنان قط إلا أفاد الله أحدهما من صاحبه خيرًا»[٣].

(١) الحديث صحيح: أخرجه مسلم في كتاب «البر والصلة» باب: (تراحم المؤمنين وتعاطفهم) (٤/ ١٩٩٩)، حديث رقم [٢٥٨٦]، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(٢) الحديث صحيح: المصدر السابق نفس الصفحات، حديث رقم [٢٥٨٥].

(٣) الحديث ضعيف: رواه السلمي في «آداب الصحبة»، وأبو منصور الديلمي في «مسند الفردوس» من حديث أنس، وفيه أحمد بن محمد بن غالب الباهلي كذاب، وهو من قول سلمان الفارسي في الأول من «الحزبيات». يراجع: «تخريج أحاديث الإحياء» للعراقي: ص [٢٥٠].

# الفَصْلُ الخَامِسُ
# تربية المؤمنين
# على اجتناب السخرية بالآخرين

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات: ١١].

***أسباب النزول:***

**الأول** - نزلت في صفية بنت حُيي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، حيث أتت رسول الله ﷺ فقالت: إن النساء يقلن لي يا يهودية بنت يهوديين، فقال لها: «هلا قلت: إن أبي هارون، وعمي موسى، وزوجي محمد عَلَيْهِمُ السَّلَامُ»[1].

**الثاني** - وقيل: إنها نزلت في ثابت بن قيس وكان به وقر، وكانوا يوسعون له في مجلس رسول الله ﷺ ليسمع؛ فأتى يومًا وهو يقول: تفسحوا لي، حتى انتهى إلى رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، فقال لرجل: تنح، فلم يفعل، فقال: من هذا؟ فقال الرجل: أنا فلان، فقال: بل أنت ابن فلانة، يريد: أمًّا كان يعير بها في الجاهلية، فخجل الرجل فنزلت، فقال ثابت: لا أفخر على أحد في الحسب بعدها أبدًا[2].

---

(١) «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»: (٥/ ٨٨): ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي: ط. دار الكتب العربية الكبرى، «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم»: (٨ / ١٢١) محمد بن محمد العمادي أبو السعود: نشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت الثانية ١٤١١هـ ١٩٩٠م.

(٢) «الكشاف»: (٤/ ٣٦٠) وما بعدها أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله: ط. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م.

**الثالث** - وقيل: إن هذه الآية: ﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ ﴾ نزلت بسبب عكرمة بن أبي جهل وذلك أنه كان يمشي بالمدينة مسلمًا، فقال له قوم: هذا ابن فرعون هذه الأمة، فعز ذلك عليه وشكاه إلى رسول الله ﷺ.

**وقال القاضي أبو محمد:** والقَويُّ عندي أن هذه الآية نزلت تقويمًا كسائر أمر الشرع، ولو تتبعت الأسباب لكانت أكثر من أن تُحصى[1].

**فقه المعاني:**

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ أي: لا يسخر بعض المؤمنين والمؤمنات من بعض إذ قد يكون المسخور منه خيرًا عند الله من الساخر، والقوم مختص بالرجال لأنه إما مصدر نعت به فشاع في الجمع أو جمع لقائم كزائر وزور، والقيام بالأمور وظيفة الرجال كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ وحيث فسر بالقبيلين كقوم عاد وفرعون، فإما على التغليب أو الاكتفاء بذكر الرجال على ذكرهن لأنهن توابع، واختيار الجمع لأن السخرية تغلب في المجامع..

﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي: ولا يغتب بعضكم بعضًا، فإن المؤمنين كنفس واحدة، أو لا تفعلوا ما تلمزون به، فإن من فعل ما يستحق به اللمز فقد لمز نفسه، واللمز الطعن باللسان.

﴿ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾ ولا يدع بعضكم بعضًا بلقب السوء، فإن النبز مختص بلقب السوء عرفًا ﴿ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ﴾ أي: بئس الذكر المرتفع للمؤمنين

---

(١) «المحرر الوجيز»: (٥ / ١٤٩): أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عبدالرحمن ابن تمام بن عطية المحاربيط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الأولى ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م

أن يذكروا بالفسوق بعد دخولهم الإيمان واشتهارهم به، والمراد به إما تهجين نسبة الكفر والفسق إلى المؤمنين، أو للدلالة على أن التنابز فسق والجمع بينه وبين الإيمان مستقبح. ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ عما نهى عنه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بوضع العصيان موضع الطاعة وتعريض النفس للعذاب[1].

إن المجتمع الفاضل الذي يقيمه الإسلام بهدى القرآن مجتمع له أدب رفيع، ولكل فرد فيه كرامته التي لا تمس. وهي من كرامة المجموع. ولمز أي فرد هو لمز لذات النفس؛ لأن الجماعة كلها وحدة، كرامتها واحدة.

والقرآن في هذه الآية يهتف للمؤمنين بذلك النداء الحبيب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وينهاهم أن يسخر قوم بقوم، أي رجال برجال، فلعلهم خير منهم عند الله، أو أن يسخر نساء من نساء فلعلهن خير منهن في ميزان الله.

وفى التعبير إيحاء خفى بأن القيم الظاهرة التي يراها الرجال في أنفسهم، ويراها النساء في أنفسهن ليست هي القيم الحقيقية، التي يوزن بها الناس. فهناك قيم أخرى، قد تكون خافية عليهم، يعلمها الله، ويزن بها العباد، وقد يسخر الرجل الغني من الرجل الفقير، والرجل القوي من الرجل الضعيف، والرجل السوي من الرجل المأفوف. وقد يسخر الذكي الماهر من الساذج الخام، وقد يسخر ذو الأولاد من العقيم، وذو العصبية من اليتيم، وقد تسخر الجميلة من القبيحة، والشابة من العجوز، والمعتدلة من المشوهة، والغنية من الفقيرة، ولكن هذه وأمثالها من قيم الأرض ليست هي المقياس، فميزان الله يرفع ويخفض بغير هذه الموازين!

(١) «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»: (٥/ ٨٨) وما بعدها ناصر الدين أبو الخير عبدالله بن عمر بن محمد البيضاوي: ط. «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم»: ٨/ ١٢١ وما بعدها محمد بن محمد العمادي أبو السعود: نشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، وتفسير النسفى المسمى مدارك التنزيل وحقائق التأويل: ٢/ ٥٨٤ وما بعدها دار الكتب العليمة بيروت لنان الأولى ١٤١٥ هـ ١٩٩٥م، وروح المعانى ١٣/ ٣٠٣ وما بعدها. دار الكتب دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.

ولكن القرآن لا يكتفى بهذا الإحياء، بل يستجيش عاطفة الأخوة الإيمانية، ويذكر الذين آمنوا بأنهم نفس واحدة من يلمزها فقد لمزها ﴿ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾.. واللمز: العيب. ولكن للفظة جرسًا وظلًا؛ فكأنما هي وخزة حسية لا عيبة معنوية!

ومن السخرية واللمز التنابز بالألقاب التي يكرهها أصحابها، ويحسون فيها سخرية وعيبًا. ومن حق المؤمن على المؤمن ألا يناديه بلقب يكرهه ويزري به. ومن أدب المؤمن ألا يؤذي أخاه بمثل هذا. وقد غير رسول الله ﷺ أسماء وألقابًا كانت في الجاهلية لأصحابها، أحس فيها بحسه المرهف، وقلبه الكريم، بما يزري بأصحابها، أو يصفهم بوصف ذميم.

والآية بعد الإحياء بالقيم الحقيقية في ميزان الله، وبعد استجاشة شعور الأخوة، بل شعور الاندماج في نفس واحدة، تستثير معنى الإيمان، وتحذر المؤمنين من فقدان هذا الوصف الكريم، والفسوق عنه والانحراف بالسخرية واللمز والتنابز: ﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِ﴾ فهو شيء يشبه الارتداد عن الإيمان! وتهدد باعتبار هذا ظلمًا، والظلم أحد التعبيرات عن الشرك: ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.. وبذلك تضع قواعد الأدب النفسي لذلك المجتمع الفاضل الكريم[1].

**ما يُستفاد من الآية المباركة من آداب تربوية:**

❁ تأديب الله وتربيته لعباده المؤمنين على عدم السخرية من أحد من الناس جميعا، فهي نكرة في سياق النهي فتعم جميع الناس وعموم البشر من غير حصر ولا استثناء ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ ﴾.

(١) «في ظلال القرآن»: ٦/ ٣٣٤٤ وما بعدها.

❁ إن الله لم ينه عن شيء إلا لضرره، وعدم جدوى نفعه، وبالتالى فيحرص العباد على ترك المضار، ويقدموا على المنافع للنفس وللغير، فهو تأديب بالتصفية، وتربية على التحلية.

❁ التنبيه على سوء أدب الساخر، وتجاوزه للحدود، وتخطيه للخطوط الحمراء، ولفت نظره للمسخور منه، بأنه من الممكن أن يكون أفضل وأنفع وأعز وأخير من الساخر، وهذا واقع ومشاهد.. فلا يجوز متابعة السخرية بحال؛ لأن متابعة الساخر في سخريته بالغير والاستماع له يعد بمثابة الرضا على فعله الخسيس، ومشايعة له على أسلوبه المنحط، والساكت عن فاعل المنكر كالمشترك في فعل المنكر، فهو وفاعله سواء بسواء في الوزر. فليتأمل!

❁ عائب الناس عائب لنفسه في الحقيقة، ومن ثم فقد نهى الله عن التماس العيب للناس في حالتى حضورهم وغيابهم، وهو أدب رفيع يشع بإثارة احترام الناس، وتربية المؤمنين على إشاعة خلق التوقير، فهى تربية راقية تنبع من احترام النفس للنفس، وإشاعة روح الجمال، والمحافظة على مشاعر الآخرين.

❁ يضم جمال الأدب القرآنى إلى ساحته تربية الأفراد على ذكر المحامد من الصفات والأسماء، وعدم التنابز بالألقاب السيئة أو الأسماء المشينة فيما بينهم، لتصفو المودة، وتزكو السريرة، ويشع جو الألفة بين عناصر المجتمع وطوائفه، وتربية ثرة كتلك لجديرة بأن تجعل المجتمع متحابًا قويًا متوحدًا متآخيًا مترابطًا متماسكًا، وهو ما تهدف إليه تربية القرآن.

❁ أدب القرآن واضح لمن يخالف قوانين تربيته، ولا ينته عما نهاه الله عنه، وهو إزالة وصف الإيمان عنه، لعدم استحقاقه إياه، وإلصاق الفسق به لخروجه عن أدب الله وتربيته!

❁ تأديب المولى عباده بدعوتهم للتوبة رغم العصيان، وتربيتهم على اجتناب ظلم الآخر بالسخرية منه أو بإعابته وتقبيحه وتشويه صورته، أو بتلقيبه بالقبيح، والعود الحميد لأخلاق الإيمان العاصمة من البذاءات.

وهذه جملة آداب رفيعة وراقية بالغة السمو في حق عموم الأفراد، وهى آداب للحاضرين الموجودين المجالسين وغيرهم من الغائبين.

# الفصل السادس

## تربية المؤمنين
## على اجتناب سوء الظن والتجسس والغيبة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾. [الحجرات: ١٢]

**أسباب النزول:**

نَزَلَتِ الْآيَةُ فِي رَجُلَيْنِ اغْتَابَا رَفِيقَهُمَا، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ إِذَا غَزَا أَوْ سَافَرَ ضَمَّ الرَّجُلَ الْمُحْتَاجَ إِلَى رَجُلَيْنِ مُوسِرَيْنِ يَخْدِمُهُمَا، وَيَتَقَدَّمُ لَهُمَا إِلَى الْمَنْزِلِ فَيُهَيِّئُ لَهُمَا مَا يُصْلِحُهُمَا مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فَضَمَّ سَلْمَانَ الْفَارِسِيَّ إِلَى رَجُلَيْنِ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَتَقَدَّمَ سَلْمَانُ إِلَى الْمَنْزِلِ فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ فَنَامَ فَلَمْ يُهَيِّئْ لَهُمَا شَيْئًا، فَلَمَّا قَدِمَا قَالَا لَهُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا؟ قَالَ: لَا غَلَبَتْنِي عَيْنَايَ، قَالَا لَهُ: انْطَلِقْ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَاطْلُبْ لَنَا مِنْهُ طَعَامًا، فَجَاءَ سَلْمَانُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَسَأَلَهُ طَعَامًا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «انْطَلِقْ إِلَى أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ، وَقُلْ لَهُ: إِنْ كَانَ عِنْدَهُ فَضْلٌ مِنْ طَعَامٍ وَإِدَامٍ فَلْيُعْطِكَ»، وَكَانَ أُسَامَةُ خَازِنَ رَسُولِ الله ﷺ وَعَلَى رَحْلِهِ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: مَا عِنْدِي شَيْءٌ، فَرَجَعَ سَلْمَانُ إِلَيْهِمَا وَأَخْبَرَهُمَا، فَقَالَا كَانَ عِنْدَ أُسَامَةَ طَعَامٌ وَلَكِنْ بَخِلَ، فَبَعَثَا سَلْمَانَ إِلَى طَائِفَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُمْ شَيْئًا، فَلَمَّا رَجَعَ قَالَا لَوْ بَعَثْنَاكَ إِلَى بِئْرِ سُمَيْحَةَ لَغَارَ مَاؤُهَا، ثُمَّ انْطَلَقَا يَتَجَسَّسَانِ، هَلْ عِنْدَ أُسَامَةَ مَا أَمَرَ لَهُمَا بِهِ رَسُولُ الله ﷺ؟ فَلَمَّا جَاءَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ قال لهما: «مالي أَرَى خُضْرَةَ اللَّحْمِ فِي أَفْوَاهِكُمَا؟!»، قَالَا: وَالله يَا

رَسُولَ الله مَا تَنَاوَلْنَا يَوْمَنَا هَذَا لَحْمًا، قَالَ: بَلْ ظَلَلْتُمْ تَأْكُلُونَ لَحْمَ سَلْمَانَ وَأُسَامَةَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ ﴾[1].

**فقه المعاني:**

**الظَّنُّ:** التَّرَدُّدُ الرَّاجِحُ بين طَرَفَى الاعْتِقَادِ الغيرِ الجازِمِ ج: ظُنونٌ وأظانينُ، وقد يوضَعُ مَوْضِعَ العِلْمِ. والظِّنَّةُ بالكسر: التُّهَمَةُ ج: كعِنَبٍ. والظَّنِينُ: المُتَّهَمُ. وأظَنَّهُ: اتَّهَمَهُ. وقولُ ابنِ سِيرِينَ: لم يكنْ عليٌّ يُظَنُّ في قَتْلِ عثمانَ يُفْتَعَلُ مِنْ تَظَنَّنَ فَأُدْغِمَ. والتَّظَنِّي: إعمالُ الظَّنِّ وأصلُه التَّظَنُّنُ. وكصَبورٍ: الرجلُ الضعيفُ والقليلُ الحيلةِ والمرأةُ لَها شَرَفٌ تَتَزَوَّج والبِئْرُ لا يُدْرَى أفيها ماءٌ أم لا، والقليلةُ الماءِ و من الدُّيونِ: ما لا يُدْرَى أيَقْضِيهِ آخذُه أم لا. ومَظِنَّةُ الشيءِ بكسر الظاءِ: موضعٌ يُظَنُّ فيه وُجودُه. وأظْنَنْتُه: عَرَّضْتُهُ للتُّهَمَةِ[2].

و أثم: الإثْمُ الذنب وقد أثم بالكسر إثما ومأثما إذا وقع في الإثم فهو آثِمٌ و أثِيمٌ و أثُومٌ أيضًا وأثمه الله في كذا بالقصر يأثمه بضم الثاء وكسرها أثاما عدة عليه إثما فهو مأثومٌ، قلت: قال الأزهري: قال الفراء: أثمه الله يأثمه إثما وأثاما جازاه جزاء الإثم فهو مأثوم أي مجزي جزاء إثمه و آثَمَهُ بالمد أوقعه في الإثم و أثَّمه تأثيما قال له: أثمت، وقد تسمى الخمر إثما، وقال:

شربت الإثم حتى ضل عقلي كذاك الإثم تذهب بالعقول

وتأثَّم: أي تحرج عن الإثم وكف، والأَثامُ جزاء الإثم، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ يَلْقَ أَثَامًا ﴾[3].

---

(١) «معالم التنزيل»: (٧/ ٣٤٤).

(٢) «القاموس المحيط» للفيروزآبادي، و«القاموس القويم للقرآن الكريم»: (٢/ ٤١٧)، «المعجم الوجيز» ص[٤٠١].

(٣) «مختار الصحاح»: محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، الناشر: مكتبة لبنان، ناشرون بيروت، الطبعة

والجَسُّ: اللَّمْسُ باليد والمَجَسَّةُ مَمَسَّةُ ما تَمَسُّ، ابن سيده جَسَّه بيده يَجُسُّه جَسًّا واجْتَسَّه أَي مَسَّه ولَمَسه والمَجَسَّةُ الموضع الذي تقع عليه يده إِذا جَسَّه وجَسَّ الشخصَ بعينه أَحَدَّ النظر إِليه ليَسْتَبِينَه ويَسْتَثْبِتَه قال:

وفِتْيَةٍ كالذُّبابِ الطُّلْسِ قلت لهم ... إِني أَرى شَبَحًا قد زالَ أَوْ حالا

فاعْصَوْ صَبْوا ثم جَسُّوه بأَعْيُنِهم ثم اخْتَفَوْه وقَرنُ الشمس قد زالا اختفوه أَظهروه والجَسُّ جَسُّ الخَبَرِ ومنه التَجَسُّسُ وجَسَّ الخَبَرَ وتَجَسَّسه بحث عنه وفحَصَ قال اللحياني تَجَسَّسْتُ فلانًا ومن فلان بحثت عنه كتَحَسَّسْتُ ومن الشاذ قراءة من قرأَ فَتَجَسَّسُوا من يوسف وأَخيه والمَجَسُّ والمَجَسَّة مَمَسَّةُ ما جَسَسْتَه بيدك وتَجَسَّسْتُ الخبر وتَحَسَّسْته بمعنى واحد وفى الحديث لا تَجَسَّسُوا التَّجَسُّسُ بالجيم التفتيش عن بواطن الأُمور وأَكثر ما يقال في الشر والجاسُوسُ صاحب سِرِّ الشَّر والناموسُ صاحب سرِّ الخير وقيل التَّجَسُّسُ بالجيم أَن يطلبه لغيره وبالحاء أَن يطلبه لنفسه وقيل بالجيم البحث عن العورات وبالحاء الاستماع وقيل معناهما واحد في تطلب معرفة الأَخبار[1].

والغيبة بكسر الغين أن تذكر أخاك بما يكرهه، فإن كان فيه فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته، أي قلت عليه ما لم يفعله، وذكر مساوىء الإنسان في غيبته وهي فيه، وإن لم تكن فيه فهي بهتان وإن واجهه فهو شتم[2].

---

طبعة جديدة، ١٤١٥ - ١٩٩٥، تحقيق: محمود خاطر.

(١) «لسان العرب»: مادة: (جسس).

(٢) «التعريفات»: (١/ ٢١٠) علي بن محمد بن علي الجرجاني الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥، تحقيق: إبراهيم الأبياري.

فهذه الآية تقيم سياجًا آخر في هذا المجتمع الفاضل الكريم، حول حرمات الأشخاص به وكراماتهم وحرياتهم، بينما هي تعلم الناس كيف ينظفون مشاعرهم وضمائرهم، في أسلوب مؤثر عجيب.

وتبدأ - على نسق السورة - بذلك النداء الحبيب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.. ثم تأمرهم باجتناب كثير من الظن، فلا يتركوا نفوسهم نهبًا لكل ما يهجس فيها حول الآخرين من ظنون وشبهات وشكوك. وتعلل هذا الأمر: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ﴾ ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ﴾.

وما دام النهي منصبًا على أكثر الظن، والقاعدة أن بعض الظن إثم، فإن إيحاء هذا التعبير للضمير هو اجتناب الظن السيِّئ أصلًا؛ لأنه لا يدري أي ظنونه تكون إثمًا!

بهذا يطهر القرآن الضمير من داخله أن يتلوث بالظن السيِّئ، فيقع في الإثم؛ ويدعه نقيًا بريئًا من الهواجس والشكوك، أبيض يكن لإخوانه المودة التي يخدشها ظن السوء؛ والبراءة التي لا تلوثها الريب والشكوك، والطمأنينة التي لا يعكرها القلق والتوقع، وما أروع الحياة في مجتمع بريء من الظنون!

ولكن الأمر لا يقف في الإسلام عند هذا الأفق الكريم الوضيء في تربية الضمائر والقلوب، بل إن هذا النص يقيم مبدأ في التعامل، وسياجًا حول حقوق الناس الذين يعيشون في مجتمعه النظيف، فلا يؤخذون بظنة، ولا يحاكمون بريبة؛ ولا يصبح الظن أساسًا لمحاكمتهم. بل لا يصلح أن يكون أساسًا للتحقيق معهم، ولا للتحقيق حولهم. والرسول الكريم ﷺ يقول: «**إذا ظننت فلا تحقق**»[1] ومعنى هذا أن يظل الناس أبرياء، مصونة حقوقهم، وحرياتهم، واعتبارهم. حتى يتبين بوضوح أنهم ارتكبوا ما يؤاخذون عليه. ولا يكفي الظن بهم لتعقبهم بغية التحقق من هذا الظن الذي دار حولهم!

---

(١) الحديث مرسل: ألا أنبئكم بالمخرج منها! إذا ظننت فلا تحقق، وإذا حسدت فلا تبغ، وإذا تطيرت فامض (في الايمان عن الحسن مرسلا). كنز العمال (١٦/ ٢٨).

فأي مدى من صيانة كرامة الناس وحرياتهم وحقوقهم واعتبارهم ينتهي إليه هذا النص! وأين أقصى ما تتعاجب به أحسن البلاد ديمقراطية وحرية وصيانة لحقوق الإنسان فيها من هذا المدى الذي هتف به القرآن الكريم للذين آمنوا، وقام عليه المجتمع الإسلامي فعلًا، وحققه في واقع الحياة، بعد أن حققه في واقع الضمير؟

ثم يستطرد في ضمانات المجتمع إلى مبدأ آخر يتصل باجتناب الظنون: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾. والتجسس قد يكون هو الحركة التالية للظن؛ وقد يكون حركة ابتدائية لكشف العورات، والاطلاع على السوءات.

والقرآن يقاوم هذا العمل الدنيء من الناحية الأخلاقية، لتطهير القلب من مثل هذا الاتجاه اللئيم لتتبع عورات الآخرين وكشف سوآتهم. وتمشيًا مع أهدافه في نظافة الأخلاق والقلوب.

ولكن الأمر أبعد من هذا أثرًا، فهو مبدأ من مبادئ الإسلام الرئيسية في نظامه الاجتماعي، وفي إجراءاته التشريعية والتنفيذية.

إن للناس حرياتهم وحرماتهم وكراماتهم التي لا يجوز أن تنتهك في صورة من الصور، ولا أن تمس بحال من الأحوال.

ففي المجتمع الإسلامي الرفيع الكريم يعيش الناس آمنين على أنفسهم، آمنين على بيوتهم، آمنين على أسرارهم، آمنين على عوراتهم. ولا يوجد مبرر - مهما يكن - لانتهاك حرمات الأنفس والبيوت والأسرار والعورات، حتى ذريعة تتبع الجريمة وتحقيقها لا تصلح في النظام الإسلامي ذريعة للتجسس على الناس. فالناس على ظواهرهم، وليس لأحد أن يتعقب بواطنهم. وليس لأحد أن يأخذهم إلا بما يظهر منهم من مخالفات وجرائم. وليس لأحد أن يظن أو يتوقع، أو حتى يعرف أنهم يزاولون في الخفاء مخالفة

ما، فيتجسس عليهم ليضبطهم! وكل ما له عليهم أن يأخذهم بالجريمة عند وقوعها وانكشافها، مع الضمانات الأخرى التي ينص عليها بالنسبة لكل جريمة.

**وعن زيد بن وهب قال:** أتى ابن مسعود، فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمرًا. فقال عبد الله: إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به[١].

**وعن مجاهد: لا تجسسوا،** خذوا بما ظهر لكم، ودعوا ما ستر الله[٢].

**وعن دجين كاتب عقبة قال:** قلت لعقبة: إن لنا جيرانًا يشربون الخمر، وأنا داع لهم الشرط، فيأخذونهم. قال: لا تفعل ولكن عظهم وتهددهم. قال: ففعل فلم ينتهوا. قال: فجاءه دجين فقال: إني قد نهيتهم فلم ينتهوا. وإني داع لهم الشرط، فتأخذهم، فقال له عقبة: ويحك! لا تفعل، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موءودة من قبرها»**[٣].

**وقال سفيان الثوري، عن راشد بن سعد، عن معاوية بن أبي سفيان، قال:** سمعت النبي ﷺ يقول: **«إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم»**[٤] فقال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كلمة سمعها معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من رسول الله ﷺ نفعه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بها.

---

(١) **الحديث صحيح:** أبو داوود (٢/ ٦٨٩) حديث رقم ٤٨٩٠ وقال الشيخ الألباني: صحيح الإسناد ط. دار الفكر بتحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.

(٢) «التوبيخ والتنبيه» لأبي الشيخ الأصبهاني.

(٣) **الحديث ضعيف:** مسند أحمد (٢٨/ ٦١٧) بتحقيق: شعيب الأرنؤوط. وآخرون الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م ضعيف حديث عقبة بن عامر: من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيى موؤدة من قبرها والطيالسي برقم: ١٠٠٥، والحاكم (٤ / ٤٢٦) والبيهقي في الشعب برقم: ٩٥٦١ وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وهو ليس كما قالا فيه بل هو ضعيف أعله المنذري في «الترغيب» (٣ / ١٧٦) بقوله: ولكن اختلف فيه على إبراهيم بن نشيط، اختلافًا كثيرًا.

(٤) **الحديث صحيح:** سنن لأبى داوود (٢/ ٦٨٨) وقال الألبانى: صحيح، دار الفكر بتحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.

فهكذا أخذ النص طريقه في النظام العملي للمجتمع الإسلامي! ولم يعد مجرد تهذيب للضمير وتنظيف للقلب، بل صار سياجًا حول حرمات الناس وحقوقهم وحرياتهم، فلا تمس من قريب أو بعيد، تحت أي ذريعة أو ستار. فأين هذا المدى البعيد؟ وأين هذا الأفق السامق؟ وأين ما يتعاجب به أشد الأمم ديمقراطية وحرية وحفظًا لحقوق الإنسان بعد ألف وأربعمائة عام؟

بعد ذلك يجيء النهي عن الغيبة في تعبير عجيب، يبدعه القرآن إبداعًا: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾. لا يغتب بعضكم بعضًا. ثم يعرض مشهدًا تتأذى له أشد النفوس كثافة وأقل الأرواح حساسية، مشهد الأخ يأكل لحم أخيه ميتًا! ثم يبادر فيعلن عنهم أنهم كرهوا هذا الفعل المثير للاشمئزاز، وأنهم إذن كرهوا الاغتياب!

ثم يعقب على كل ما نهاهم عنه في الآية من ظن وتجسس وغيبة باستجاشة شعور التقوى، والتلويح لمن اقترف من هذا شيئًا أن يبادر بالتوبة تطلعًا للرحمة: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.

ويسري هذا النص في حياة الجماعة المسلمة فيتحول إلى سياج حول كرامة الناس، وإلى أدب عميق في النفوس والقلوب. ويتشدد فيه رسول الله ﷺ متمشيًا مع الأسلوب القرآني العجيب في إثارة الاشمئزاز والفزع من شبح الغيبة البغيض.

**وعن أبي هريرة قال:** قيل: «يا رسول الله، ما الغيبة؟ قال ﷺ: **«ذكرك أخاك بما يكره»**. قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال ﷺ: **«إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»**[1] [ورواه الترمذي وصححه].

---

(١) **الحديث صحيح**: صحيح وضعيف سنن الترمذى للألبانى وهو حديث حسن صحيح (٤/ ٣٤٣).

وعن أبي حذيفة، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا، (قال عن مسدد تعني قصيرة) فقال ﷺ: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته»[١] قالت: وحكيت له إنسانًا. فقال ﷺ: «ما أحب أني حكيت إنسانًا وأن لي كذا وكذا».

**وعن أنس بن مالك قال:** قال رسول الله ﷺ: «**لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، قلت: من هؤلاء يا جبرائيل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم**»[٢].

ولما اعترف ماعز بالزنا هو والغامدية، ورجمهما رسول الله ﷺ بعد إقرارهما متطوعين وإلحاحهما عليه في تطهيرهما، سمع النبي ﷺ رجلين يقول أحدهما لصاحبه: ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب! ثم سار النبي ﷺ حتى مر بجيفة حمار، فقال: «**أين فلان وفلان؟ انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار**» قالا: غفر الله لك يا رسول الله! وهل يؤكل هذا؟ قال ﷺ: «**فما نلتما من أخيكما آنفًا أشد أكلًا منه. والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها**»[٣].

وبمثل هذا العلاج الثابت المطرد تطهر المجتمع الإسلامي وارتفع، وانتهى إلى ما صار إليه: حلمًا يمشي على الأرض، ومثلًا يتحقق في واقع التاريخ.

---

(١) **الحديث صحيح**: سنن أبي داوود وقال الألباني: صحيح (٢/ ٦٨٥) ط. دار الفكر بتحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.

(٢) **الحديث صحيح**: سنن أبي داوود، وقال الألباني: صحيح (٢/ ٦٨٥).

(٣) **الحديث ضعيف**: سنن أبي داوود، وقال الألباني: ضعيف (٢/ ٥٥٣).

وبعد هذه النداءات المتكررة للذين آمنوا؛ وأخذهم إلى ذلك الأفق السامي الوضيء من الآداب النفسية والاجتماعية؛ وإقامة تلك السياجات القوية من الضمانات حول كرامتهم وحريتهم وحرماتهم، وضمان هذا كله بتلك الحساسية التي يثيرها في أرواحهم، بالتطلع إلى الله وتقواه[١].

وقد وردت عدة أحاديث في النهى عن إساءة الظن والتجسس والغيبة وهى كالتالى: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى ينكح أو يترك**»[٢].

يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو كان في جوف بيته[٣].

***ما يُستفاد من الآية المباركة من آداب تربوية:***

- تربية الله عباده المؤمنين على جمال السريرة، وطهارة الطوية، ونقاء الصدر، وزكاء القلب، وحسن الظن بالآخرين.
- لما كان التجسس يعتبر بمثابة المرحلة التالية لإساءة الظن بالآخر، لاغرو ربى الله عباده المؤمنين على اجتنابه، لاسيما أن فيه تحديا سافرا للمجتمع؛ لأنه يرتبط بأخبارهم، وقد يطيح بحرياتهم، ويشيع أسرارهم، وينتهك حرماتهم، ويدمر كيانهم، فلأجل ذلك لا جرم نهى المولى عَزَّوَجَلَّ عنه لأنه يجمع خستين في وقت واحد هما: إساءة الظن،

---

(١) «في ظلال القرآن»: (٦/ ٤٥- ٤٦) بتصرف.

(٢) **الحديث صحيح**: أخرجه مسلم: «كتاب البر»: باب: (تحريم الظن): حديث رقم [٢٥٦٣].

(٣) **الحديث صحيح**: أخرجه أبو داود من حديث أبي برزة بإسناد جيد وللترمذي من حديث ابن عمر وحسنه.

والتجسس، اللهم إلا إذا كانت هناك مصلحة قومية عليا ترتبط بأمن الوطن لحفظه من أيادى المخربين وأهل السوء والأشرار والفجار المفسدين - نجانا الله منهم - فإنه في هذه الحالة يصير واجبا؛ لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، ومعلوم أن درء مفسدة ما يقوم به الأشرار والفجار أحق بالتقدم من جلب المصالح الشرعية، وذلك عملا بما هو مقرر لدى الفقهاء: الضرورات تبيح المحظورات.

❁ تربية الله عباده المؤمنين على عفة اللسان وطهارته من الغيبة، نظرا لأن مجتمع الغيبة لا يمكن أن يثمر خيرا، وغالبا ما يطعن طعنات قاتلة للغير، بلا ذنب اللهم إلا افتراء على خلق الله، وتمزيقا لأعراضهم بالباطل.

❁ التربية الربانية للمشاعر والأحاسيس والضمائر والوجدان على النفور من كبيرة الغيبة!

ففي استحضار المشهد المؤلم، والمشاعر النافرة والمتقذذة، أمر له حساباته في دنيا التربية، خاصة في استحضار مشاهد الصورة، لترك كبيرة الغيبة هذه الجريمة المدمرة والمنفرة معًا.

حيث يصور الله المغتاب في صورة ميتة لا حياة فيها ولا حراك، بينما يأتى فاعل الغيبة في عرض أخيه في منظر بشع فظيع مهول، وصورة مرعبة، لا إحساس ولا الإنسانية ولا آدمية فيها، فتراه كالوحش الكاسر الذى يقطع ويأكل من جسد أخيه هذا الهامد الميت!!

❁ تربية الله عباده على التحلى بخلق المراقبة له، ودعوتهم للتوبة.

# الفصل السابع
## تربية المؤمنين
## على خلق التواصل

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

***أسباب النزول:***

**الأول** - أمر رسول الله ﷺ بني بياضة أن يزوجوا أبا هند امرأة منهم، فقالوا لرسول الله ﷺ: نزوج بناتنا موالينا؟ فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا ﴾.. الآية. قال الزهري: نزلت في أبي هند خاصة.

**الثاني** - وقيل: إنها نزلت في ثابت بن قيس بن شماس. وقوله في الرجل الذي لم يتفسح له: ابن فلانة، فقال النبي ﷺ: «من الذاكر فلانة؟» قال ثابت: أنا يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: «انظر في وجوه القوم فنظر»، فقال: «ما رأيت؟» قال: رأيت أبيض وأسود وأحمر، فقال: «فإنك لا تفضلهم إلا بالتقوى» فنزلت في ثابت هذه الآية، ونزلت في الرجل الذي لم يتفسح له: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ﴾.
[المجادلة: ١١]

**الثالث** - قال ابن عباس: لما كان يوم فتح مكة أمر النبي ﷺ بلالًا حتى علا على ظهر الكعبة فأذن، فقال عتاب بن أسيد بن أبي العيص: الحمد لله الذي قبض أبي حتى لا يرى هذا اليوم.

**وقال الحارث بن هشام:** ما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنا. وقال سهيل ابن عمرو: إن يرد الله شيئا يغيره.

**وقال أبو سفيان:** إني لا أقول شيئا أخاف أن يخبر به رب السماء، فأتى جبريل النبي ﷺ وأخبره بما قالوا، فدعاهم وسألهم عما قالوا فأقروا، فأنزل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذه الآية[1].

**فقه المعاني:**

خلقناكم من آدم وحواء، وكلكم بنو أبٍ وَاحِدٍ وَأُمٍّ وَاحِدَةٍ إِلَيْهِما تَرْجِعُونَ. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا ﴾.

والشعب أعظم من القبيلة، أي لم يجعلكم شعوبًا وقبائل لتفاخروا، وإنما جعلناكم كذلك لتتعارَفُوا، ثم أعلمهم الله عَزَّوَجَلَّ أن أرفعهم عِنْدَهُ مَنْزِلَةً أَتْقَاهُمْ فقال: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾، ولو قرئتِ ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ جاز ذلك على معنى: وجَعَلْناكم شعوبًا ليعرف بعضكم بعضًا أنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم[2].

فالمجتمع الإسلامى مجتمع عالمى، بمعنى أنه مجتمع غير عنصرى لا قومى ولا قائم على الحدود الجغرافية، فهو مجتمع مفتوح لجميع بنى الإنسان، دون النظر إلى جنس أو لون أو لغة، بل دون نظر إلى دين أو عقيدة.

إن الإسلام ينفى منذ اللحظة الأولى كل نعرة جنسية أو عنصرية، فيرد البشرية كلها إلى أصل واحد، ويقرر أن لافضل لجنس على جنس، ولا ميزة لعنصر على عنصر،

---

(١) «معالم التنزيل»: (٧/ ٣٤٧)، ط. دار طيبة، «الجامع لأحكام القرآن»: (١٦/ ٣٤٠) وما بعدها، «أسباب النزول» للواحدى: (ص ٢٩١)، دار زهران للنشر والتوزيع.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٥/ ٣٦): إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج، المتوفى ٣١١هـ نشر: عالم الكتب - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

وأن اختلاف اللغات والألوان لا يدل على ميزة ولا أفضلية، ولم يرد به إلا التعارف لا التناكر، وأن هناك ميزانا واحدا لتقدير الأفضلية، هو تقوى الله وطاعته، والعمل الصالح في عباده، وهى أمور شخصية لا علاقة لها بالأجناس والألوان.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾. «لا فضل لعربي على عجمى إلا بالتقوى»[1].

وبذلك ينفى عن المجتمع الإسلامى فكرة التمييز العنصرى منذ اللحظة الأولى، ويفتح أبوابه للبشر عامة على قدم المساواة الكاملة، وعلى أساس الشعور الإنسانى الخالص، وليس أكره للحس الإسلامى من ذلك التعصب الذى تثيره نعرة الجنس على طريقة الأمريكان مع الهنود الحمر أو الزنوج، أو طريقة أفريقيا الجنوبية مع الملونين عامة.

ومن ثم تملك جميع الأجناس البشرية، وجميع الألوان وجميع اللغات أن تجتمع في حمى الإسلام وفى ظل نظامه الاجتماعى، وهى تحس آصرة واحدة تربط بينها جميعا وهى آصرة الإنسانية، التي لا تفرق بين أسود وأبيض؛ لأنهم يلتقون عند الرابطة الكبرى. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [الحجرات: ١]. «ليس منا من دعا إلى عصبية»[2].

---

(١) «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، المتوفى سنة ٨٠٧هـ بتحرير الحافظين الجليلين: العراقي وابن حجر(٣/ ٣٣٦) طبعة دار الفكر، بيروت، ط. ١٤١٢ هـ الموافق ١٩٩٢م.

(٢) الحديث ضعيف: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية». قال الشيخ الألباني: ضعيف، «مسند أبو داود» (٢/ ٧٥٣).

فالإسلام يزيل الحواجز الجغرافية التي تقوم بين شعوب الأرض، وتخلق ذلك الشعور القومى الحاد، وتعمل بذلك على خلق المنافسة الخطرة بين القوميات المتباينة، وتؤدى في النهاية إلى التكالب الاستعمارى، الذى يستغل أمة لأمة أو جنسا لجنس، أو وطنا لوطن.

إن الإسلام لا يعرف تلك الحدود الإقليمية، كما أنه لا يعرف حدود الأجناس والألوان، فالأرض لله، والجنس البشرى مستخلف فيها لعمارتها واستغلال كنوزها، والناس كلهم إخوة لا ينالون رحمة الله وعونه ما لم يتراحموا فيما بينهم، ويتعاونوا على العمل الصالح، والرسول الكريم ﷺ يقول: «ارحموا من في الأرض»[1] بدون تخصيص لجنس ولا عنصر، بل بدون تخصيص لأتباعه المؤمنين[2].

يا أيها الناس، يا أيها المختلفون أجناسًا وألوانًا، المتفرقون شعوبًا وقبائل. إنكم من أصل واحد، فلا تختلفوا، ولا تتفرقوا، ولا تتخاصموا، ولا تذهبوا بددًا.

يا أيها الناس، والذي يناديكم هذا النداء هو الذي خلقكم.. من ذكر وأنثى.. وهو يطلعكم على الغاية من جعلكم شعوبًا وقبائل. إنها ليست التناحر والخصام. إنما هي التعارف والوئام. فأما اختلاف الألسنة والألوان، واختلاف الطباع والأخلاق، واختلاف المواهب والاستعدادات، فتنوع لا يقتضي النزاع والشقاق، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات. وليس للون والجنس واللغة

(١) الحديث صحيح: عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن. ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء. الرحم شجنة من الرحمن، فمن وصلها وصله الله، ومن قطعها قطعه الله» قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. قال الشيخ الألباني: صحيح. «سنن الترمذى» (٤/ ٣٢٣) ط. دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(٢) «نحو مجتمع إسلامى»: [ص٩٢-٩٥] بتصرف: الإمام الشهيد الأستاذ سيد قطب، ط. دار الشروق، السادسة ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣م.

والوطن وسائر هذه المعاني من حساب في ميزان الله. إنما هنالك ميزان واحد تتحدد به القيم، ويعرف به فضل الناس: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.. والكريم حقًا هو الكريم عند الله، وهو يزنكم عن علم وعن خبرة بالقيم والموازين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

وهكذا تسقط جميع الفوارق، وتسقط جميع القيم، ويرتفع ميزان واحد بقيمة واحدة، وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر، وإلى هذه القيمة يرجع اختلاف البشر في الميزان.

وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض؛ وترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس، ويظهر سبب ضخم واضح للألفة والتعاون: ألوهية الله للجميع، وخلقهم من أصل واحد، كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته: لواء التقوى في ظل الله.

وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس، والعصبية للأرض، والعصبية للقبيلة، والعصبية للبيت، وكلها من الجاهلية وإليها، تتزيا بشتى الأزياء، وتسمى بشتى الأسماء، وكلها جاهلية عارية من الإسلام!

وقد حارب الإسلام هذه العصبية الجاهلية في كل صورها وأشكالها، ليقيم نظامه الإنساني العالمي في ظل راية واحدة: راية الله.. لا راية الوطنية. ولا راية القومية. ولا راية البيت. ولا راية الجنس، فكلها رايات زائفة لا يعرفها الإسلام.

قال رسول الله ﷺ: «**كلكم بنو آدم، وآدم خلق من تراب**[١] **ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم، أو ليكونن أهون على** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى **من الجعلان**»، وقال ﷺ عن العصبية الجاهلية: «**دعوها فإنها منتنة**»[٢].

وهذه هي القاعدة التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي. المجتمع الإنساني العالمي، الذي تحاول البشرية في خيالها المحلق أن تحقق لونًا من ألوانه فتخفق؛ لأنها لا تسلك إليه الطريق الواحد الواصل المستقيم.. الطريق إلى الله.. ولأنها لا تقف تحت الراية الواحدة المجمعة.. راية الله[٣].

***ما يُستفاد من الآية المباركة من آداب تربوية:***

❁ تربية الله جميع البشر بالتذكر والتفكير على اختلاف أديانهم وشتى أشكالهم وتنوع لغاتهم بأنهم أبناء لأب واحد هو آدم، وأم واحدة هي حواء عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

❁ التربية بتذكر نعمة الأخوة العامة والمطلقة، على الرغم من اختلاف الدين، فهى أخوة من شأنها العمل على تواضع الإنسان لأخيه الإنسان، وترك الكبرياء عليه، فلا احتقار ولا ازدراء ولا استعلاء ولا غرور في ظل هذه الأخوة الثابتة.

❁ تربية الأفراد والجماعات على تبادل المنافع، وبذل المصالح، ونشر السلام، وإرساء الأمن، وبسط الأرزاق، وتلاقح الأفكار ونشر الثقافات وتعليم العلوم وتحصيل المعارف وتواصل الحضارات وتحقيق الصلات ليصب ذلك كله من نهر الإنسانية لخدمة البشرية والنفع العام لجميع بنى البشر فالعلة في الشعوبية والقبلية واختلاف الأوطان والألسنة والأشكال والبلدان إنما هو لهدف سام وهو النفع العام.

---

(١) الحديث حسن وسبق تخريجه.

(٢) الحديث صحيح وسبق تخريجه.

(٣) «فى ظلال القرآن»: (٦/ ٣٣٤٨) وما بعدها.

❁ تربية العباد جميعًا على بذل الاجتهاد الدائم والمستمر للوصول إلى أرقى مستوى حضاري في هذا التنافس الآدمي والأخوي الشريف والحميم لنيل الكرامة العليا عند الله مع التأكيد بأن الكرامة العليا عند الله لا تنال إلا بتقواه سبحانه، فلا صلة لها أبدا بمسألة الأجناس والعائلات، ولا الألوان ولا اللغات، ولا الغنى ولا المناصب والدرجات، وإنما هي مسألة شخصية بحتة تكون بين العبد وخالقه، ويعود نفعها العام على الفرد والأسرة والمجتمع.

❁ تربية العباد جميعًا على ضرورة النهوض والتقدم في مسألة «تقوى الله» والتأكيد على المنافسة الشريفة فيها، وشحذ الهمم نحوها، وشد العزائم إليها لأنها مسألة مهمة جدا لا تنال الكرامة عند الله إلا بها.

❁ تربية العباد على الإيمان بالله ومراقبته في كل قول وعمل؛ لأنه سبحانه عليم بخفايا النفوس خبير بما يصدر عنها من نفع عام أو غيره، وهو سبحانه يجازي العباد على ما يخفون وما يعلنون.

## الفصل الثامن
## تربية المؤمنين
## على التخلق بصدق الإيمان

﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن
تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥
قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٦
يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ
١٧ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الحجرات: ١٤-١٨].

***أسباب النزول:***

**أولًا** - قيل: إنها نزلت في غير المنافقين، في قوم من المسلمين قالوا: آمنا وهاجرنا وفعلنا وصنعنا فمنوا على رسول الله بذلك. والأشبه - واللهُ أعلم - أن يكون في قوم من المنافقين(١).

**ثانيًا** - وقيل نَزَلَتْ في نَفَرٍ مِنْ بَنِي أَسَدِ بْنِ خُزَيْمَةَ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ في سَنَةٍ جَدْبَةٍ فَأَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ وَلَمْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ في السِّرِّ، فَأَفْسَدُوا طُرُقَ الْمَدِينَةِ بِالْعَذِرَاتِ وَأَغْلَوْا أَسْعَارَهَا، وَكَانُوا يَغْدُونَ وَيَرُوحُونَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَيَقُولُونَ: أَتَتْكَ الْعَرَبُ بِأَنْفُسِهَا عَلَى ظُهُورِ رَوَاحِلِهَا، وَجِئْنَاكَ بِالْأَثْقَالِ وَالْعِيَالِ وَالذَّرَارِيِّ، وَلَمْ

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه»: (٥/ ٣٨): إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١هـ) نشر: عالم الكتب – بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ بتصرف.

نُقَاتِلْكَ كَمَا قَاتَلَكَ بْنُو فُلَانٍ وَبْنُو فُلَانٍ، يُمَنُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَيُرِيدُونَ الصَّدَقَةَ، وَيَقُولُونَ: أَعْطِنَا، فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةَ[1].

**ثالثًا** - وَقَالَ السُّدِّيُّ: نَزَلَتْ فِي الْأَعْرَابِ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللهُ فِي سُورَةِ الْفَتْحِ، وَهُمْ أَعْرَابُ جُهَيْنَةَ وَمُزَيْنَةَ وَأَسْلَمَ وَأَشْجَعَ وَغِفَارٍ، كَانُوا يَقُولُونَ: آمَنَّا لِيَأْمَنُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، فَلَمَّا اسْتُنْفِرُوا إِلَى الْحُدَيْبِيَةِ تَخَلَّفُوا، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ﴾ صَدَّقْنَا[2].

والراجح عندي أن الآية لم تنزل في قوم من المنافقين كما مال إليه الزجاج والبخارى، ولو كانت نزلت فيهم لعنفهم الله كما يعنف المنافقين.

**يقول ابن كثير:** هؤلاء الأعراب المذكورون في هذه الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقاما أعلى مما وصلوا إليه، فأدبوا في ذلك، وهذا معنى قول ابن عباس وإبراهيم النخعي، وقتادة، واختاره ابن جرير. وإنما قلنا هذا لأن البخاري، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يُظهرون الإيمان وليسوا كذلك[3].

**فقه المعاني:**

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ﴾ أي: لم تصدقوا بقلوبكم وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا أي استسلمنا وانقدنا مخافة القتل والسبي.

---

(١) يراجع: «تفسير عبد الرزاق»: (٢ / ٢٣٥)، «معالم التنزيل»: (٧ / ٣٤٩)، «البحر المحيط»: (٨ / ١١٧)، «الدر المنثور»: (٧ / ٥٨٥)، «القرطبي»: (١٦/ ٣٤٨)، «الفتوحات الإلهية»: (٤/ ١٨٦).

(٢) «معالم التنزيل»: (٧/ ٣٥٠)، «القرطبي»: (١٦/ ٣٤٨)، «البحر المحيط»: (٨ / ١١٧).

(٣) «تفسير ابن كثير»: (٤/ ١٩٣).

﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ أخبر أن حقيقة الإيمان هو التصديق بالقلب وأن الإقرار باللسان وإظهار شرائعه بالأبدان لا يكون إيمانا دون التصديق بالقلب والإخلاص.

**عن سعد بن أبي وقاص قال:** أعطى رسول الله ﷺ رهطا وأنا جالس فترك رسول الله ﷺ رجلا منهم هو أعجبهم إليّ فقلت: ما لك عن فلان؟! والله إني لأراه مؤمنًا، فقال رسول الله ﷺ أو مسلما ذكر ذلك سعد ثلاثًا، وأجابه بمثل ذلك ثم قال: **«إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه خشية أن يكب في النار على وجهه»**[1].

**زاد في رواية:** قال الزهري: «فترى أن الإسلام الكلمة والإيمان العمل الصالح» لفظ الحميدي: اعلم أن الإسلام هو الدخول في السلم وهو الانقياد والطاعة، فمن الإسلام ما هو طاعة على الحقيقة باللسان والأبدان والجنان لقوله لإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ١٣١]. ومنه ما هو انقياد باللسان والقلب وذلك قوله: ﴿ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [البقرة: ١٣١]، وقيل: الإيمان هو التصديق بالقلب مع الثقة وطمأنينة النفس عليه، والإسلام هو الدخول في السلم، والخروج من أن يكون حربا للمسلمين مع إظهار الشهادتين، فإن قلت: المؤمن والمسلم واحد عند أهل السنة، فكيف يفهم ذلك مع هذا القول؟ قلت: بين العام والخاص فرق فالإيمان لا يحصل إلا بالقلب، والانقياد قد يحصل بالقلب وقد يحصل باللسان، فالإسلام أعم، والإيمان أخص، لكن العام في صورة الخاص متحد مع الخاص، ولا

---

(١) الحديث صحيح: أخرجه البخاري في «الزكاة» باب: (قول الله تعالى: ﴿ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ [البقرة: ١٣١]): (٣/ ٣٤٠)، وفي «الإيمان»: (١/ ٧٩)، ومسلم في «المسافرين» باب: (تألف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه والنهي عن القطع بالإيمان من غير دليل قاطع) برقم [١٥٠] (١/ ١٣٢).

يكون أمرا غيره، فالعام والخاص مختلفان في العموم والخصوص متحدان في الوجود، فذلك المؤمن والمسلم[١].

وأستطيع القول بأنه بين الإسلام والإيمان عمومًا وخصوصًا مطلقًا، فكل إسلام لا يطلق عليه إيمانا، وكل إيمان يطلق عليه إسلام.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: ظاهرًا وباطنًا، سرًا وعلانية، وقال ابن عباس: «تخلصوا له الإيمان لا يَلِتْكُمْ أي لا ينقصكم مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئًا» أي: من ثواب أعمالكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أى: في طاعته والمجاهدة بالأموال والأنفس تشمل العبادات المالية والبدنية بأسرها، يعنى أنه ليس المراد بسبيل الله الغزو بخصوصه، بل ما يعم الطاعات كلها؛ لأنها في سبيله وجهته، فالمجاهدة بالأموال عبارة عن الطاعات المالية كالزكاة، وقدم الأموال لحرص الإنسان عليها؛ فإن ماله شقيق روحه، وجاهدوا بذلوا الجهد، ومفعوله مقدر أى إبليس والدنيا والنفس والهوى ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾.

فيه إشارة إلى أنه تعريض بكذب الأعراب في ادعائهم الإيمان، وأنه يفيد الحصر أى هم الصادقون لا هؤلاء فإيمانهم إيمان صدق[٢].

---

(١) «باب التأويل في معاني التنزيل» (٤/ ١٨٤): علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن (المتوفى: ٧٤١هـ) بتحقيق: تصحيح محمد علي شاهين، نشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ «تفسير ابن كثير»: (٤/ ١٩٣).

(٢) «الفتوحات الإلهية»: (٤ / ١٨٧) بتصرف.

ولما نزلت هاتان الآيتان أتت الأعراب رسول الله ﷺ يحلفون بالله إنهم مؤمنون صادقون، وعرف الله منهم غير ذلك، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴾ أي: تخبرون الله بدينكم الذي أنتم عليه ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: لا تخفى عليه خافية ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي: لا يحتاج إلى إخباركم.

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ﴾ هو قولهم أسلمنا ولم نحاربك، يمنون بذلك على رسول الله ﷺ فبين بذلك أن إسلامهم لم يكن خالصًا[1] ﴿ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ﴾ أي: لا تعتدوا عليّ بإسلامكم، والمن معناه: تعداد النعم على المنعم عليه، وهو مذموم من الخلق ممدوح من الخالق كما قال: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ يمنون عليك أن أسلموا، يعدون إسلامهم عليك منة وهي النعمة التي لا يجازي موليها ممن بذلها إليه من المن بمعنى القطع[2] أي: لله المنة عليكم أن أرشدكم وأمدكم بتوفيقه حيث هداكم للإيمان على ما زعمتم وادعيتم وهو: إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أي إنكم مؤمنون ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي إنه عَزَّوَجَلَّ لا يخفى عليه شيء في السموات والأرض فكيف يخفى عليه حالكم، بل يعلم سركم وعلانيتكم ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي: بجوارحكم الظاهرة والباطنة وسُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعلم[3].

---

(١) «باب التأويل في معاني التنزيل»: (٤/ ١٨٤): علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن (المتوفى: ٧٤١هـ) بتحقيق: تصحيح محمد علي شاهين، نشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، «تفسير ابن كثير»: (٤/ ١٩٣).

(٢) «الفتوحات الإلهية»: (٤/ ١٨٧) بتصرف.

(٣) «باب التأويل في معاني التنزيل»: (٤/ ١٨٤): علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن (المتوفى: ٧٤١هـ) بتحقيق: تصحيح محمد علي شاهين، نشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، «تفسير ابن كثير»: (٤/ ١٩٣).

**ما يُستفاد من الآيات الكريمات من آداب تربوية :**

❁ التربية على الصدق ميزة يجب أن يتحلى بها أهل الإيمان.

❁ تربية الله عباده على المعرفة المتمثلة في الفرق بين الإسلام والإيمان، من حيث رفعة درجته وعلو رتبته على الإسلام.

❁ تربية الله عباده على طاعته وطاعة رسوله الكريم ﷺ، لتحصيل جزيل الأجور منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

❁ تربية الله عباده على الاستزادة من الإيمان به وبرسوله واليقين، والجهاد المالى والبدنى في جميع وجوه الخير.

❁ التربية الأفراد على عدم السماح بالمن على الغير، نظرا لأنه خلق مشين، يعيب بصاحبه، ويحبط. عمله.

❁ التربية على التعبد بأن الله وحده هو الذى يعلم خزائن غيب السماوات والأرض، وينظر لعمل الإنسان فليتحر الصدق والإخلاص فيه لينال به درجة القبول عند الله.

## وختامًا

فإن البشرية المعذبة لن تجد راحتها أو لذتها، ولا طمأنينتها أو سعادتها، ولا عزتها أو سرورها، ولا استقرارها أو هناءها، إلا في كتاب الله وسنة رسوله الكريم ﷺ!

وستظل البشرية تائهة معذبة إلى أن تدرك أن القرآن هو الدستور الشامل للأخلاق العظمى والمنهج الكامل في التربية المثلى، والكتاب الجامع للآداب العليا.. ففيه الغنى عن غيره، ولا يستطيع غيره أن يغنى غناه مهما كان!

لأنه البلاغ الأخير، والسراج المنير الذى يسبر دخائل النفس، وسير العقل، ونبض القلب، وخلجات الصدور، وأسرار الروح، حيث جمع بين دفتيه لكل نفس تزكية، ولكل عقل تجلية، ولكل قلب تبصرة، ولكل صدر شفاء، ولكل روح غذاء، إن تفتحت على آدابه، وأقبلت على قوانين تربيته، وطبقت لدستوره، واهتدت بأنوار تجلياته.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [النجم: ٣٢].

كيف لا؟ وهو النور السارى بين الله وخلقه، والسر الجامع لغيب السماوات والأرض، الهادى على الدوام من الطول إلى العرض.

الذى أحيا الله به الأموات، ودل به على إدراك الفوات، وأعز به في المحيا والممات، وأقام به معجزة المعجزات، وآية الآيات.. فأعز الله به قوما كانوا أذلاء، وأغنى به فقراء، وعلم به من الجهالة الجهلاء، وأخرج به من حنادس الظلماء، ورفع به من الغبراء للعلياء، لا تقل كيف ذلك؟ إنها معجزات القرآن التي تظلل أصحابها بالغمامة، وتلبسهم حلل الكرامة، وتجعلهم في الناس شامة وعلامة!

إنها باختصار آداب القرآن ونفحاته المباركات، وتربيته التي تغلغلت في القلوب وتحركت في الدماء حتى جعلت أصحابها من الرعيل الأول قرآنا يتحرك ويتكلم، ويقرأ ويأمر، وينهي، وينتشر عبيره ويفوح بين الناس شذاه، ألا فما أحوج البشرية جمعاء لهدى القرآن والتخلق بخلقه، والتأدب بتعاليمه، وفق خلق نبينا الكريم ﷺ؟!

فلو أن الناس استمسكو بهدى القرآن والتزموا منهج السنة النبوية المباركة لعاشوا سعداء ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٠]، ولما ضلوا عن النهج القويم المستقيم، وإنه لا صلاح لآخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، كما بين ذلك الرسول الكريم ﷺ في قوله: «**تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما إن تمسكتم بهما: كتاب الله وسنتي، ولن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض**»(١).

ولا غرو من أن موضوع الدراسات التربوية للفرد والمجتمع في سورتنا المباركة ﴿ الحجرات ﴾ يستوعب ما قلناه في ثنايا البحث، بل ويزيد عليه.

ولاسيما أن الموضوع يحتاج إلى عمل الباحثين وتأمل الدارسين في القرآن الكريم وغيره، وخاصة في باقي سوره المباركات، وهذا لعمرو الحق إن دل على شيء، فإنما يدل على إعجاز القرآن الكريم وعطائه الذي لا ينتهى؛ لأنه الكتاب الخالد الذى جمع في آدابه وتربيته منتهى نهاية الفضيلة الإنسانية والكمال العقلى والسمو الإنساني!

---

(١) «موسوعة الألباني في العقيدة» (١/ ٣٠٣) (رواه مالك بلاغًا والحاكم موصولًا بإسناد حسن). مركز النعمان للبحوث والدراسات الإسلامية وتحقيق التراث والترجمة، صنعاء - اليمن، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

هدانا الله أحسن اهتداء، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

اللهم صل وسلم وبارك على معلم الناس الخير سيدنا وحبيبنا محمد وجميع آله وأصحابه بلا حصر ولا حد ولا عد ولا منتهى إلى يوم الدين صلاة وتسليما نجاور بهما في الروضة المشرفة وفى الفردوس الأعلى.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه

**راجي عفو ربه والفقير إلى مولاه**

إسماعيل أبو شطره